شيء من تاريخ الكوفة:

مدينة الكوفة
منذ تأسيسها حتى نهاية العهد الأموي

الدكتور: أزهر أحمد العاني

الكوفة: هي ثاني مدينة مُصِّرتْ في الإسلام، ثم أصبحت من المراكز الزاهرة للعلم والحضارة الإسلامية العربية. وللكوفة تاريخٌ سياسيٌ وحضاريٌ حافل، فمنها اتخذ الامام عليٌ (ع) أول عاصمة عراقية للاسلام، وفيها استشهد بعد أن زرع هو وعددٌ من قادة الفكر الإسلامي، أمثال عبد الله بن مسعود، وكميل بن زياد النخعي، وأبي الأسود الدؤلي، غرساتٍ فكرية ما لبثت أن أينعت وأتت ثمارها بعد أن أصبحت الكوفة وربيبتها البصرة أعظم مركزين للفكر العربي الاسلامي خلال العهد الأموي.

وسنأتي على ذكر بعض التفصيلات عن تأريخ هذه المدينة فنقول:

معنى كلمة الكوفة: لو بحثنا معنى كلمة الكوفة لوجدنا أن المصادر توردُ لها معانٍ عديدةٍ، فالبلاذري يقول: «ان المواضع المستديرة من الرمل تسمى كوفاني، وبعضهم يسمى الأرض التي فيها الحصباءُ مع الطين والرمل كوفةً». وفي رواية أخرى يرى البلاذري: ان اسم الكوفة مشتقٌ من التكوف الذي هو بمعنى الاجتماع[١]. ويورد ياقوت المعاني التي أوردها البلاذري لمعنى كلمة الكوفة، ويقول عند كلامه عن كلمة كوفان: إنها اسم أرض وبها سميتْ الكوفةُ، وان كوفانَ والكوفة واحد. ويستشهد ياقوت بأبيات من الشعر لعلي بن محمد الكوفي المعروف بالحمّاني نوردُ منها البيت التالي:

ألا هـــل مـــن سبيـــلٍ إلـــى نظـــرةٍ   بكـــوفـــان يحيـــى بهـــا النـــاظـــران[٢]

واختلف الباحثون المحدثون في أصل كلمة الكوفة، وهل هي كلمة عربية أم أنها

(١) البلاذري، أحمد بن يحيى، فتوح البلدان (القاهرة، ١٩٣٢) ص ٢٧٥.
(٢) الحموي، ياقوت، معجم البلدان، ج ٧ (القاهرة، ١٩٠٦) ص ٢٩٤ ـ ٢٩٥.

أعجمية؟ وكان الأستاذ يعقوب سركيس من بين من قالوا بأنها أعجمية. واستنتج الأستاذ المذكور بعد مناقشة للمصادر المختلفة، بما فيها الكلدانية، أن الكوفة محرّفة عن كلمة «كـوبا» الكلدانية[١]. أما الأستاذ ماسنيون، فيرى أن كلمة الكوفة ترجمة لكلمة «عاقولا» بالسريانية. وتعني تلك الكلمة «دائرة أو حلقة» في اللّغة المذكورة[٢].

وقد استعرض الدكتور كاظم الجنابي طائفة كبيرة من المصادر الباحثة عن أصل كلمة الكوفة كما ناقش آراء عددٍ كبير من الكتّاب المحدثين، وتوصل إلى أن الكوفة «بلا شك اسمٌ عربي»[٣].

ويبدو أن الآراء التي أدلى بها الباحثون ممن ذكرنا هنا وممن لم نذكر حول عجمة اسم الكوفة أو عروبته عرضة للمناقشة، لأن اسم الكوفة، كما يظهر مشتق من شكل أرض موضع الكوفة وسماته الطبيعية، لذا يتحقق أصله الناتج عن الوصف الطبيعي لموضعها بغض النظر عمّن أطلقه على تلك البقعة العراقية. ومن الأدلة على ذلك:

أولاً: أن البلاذري في احدى رواياته، يقول: إن بعضهم يسمي الأرض التي فيها الحصباء مع الطين والرمل كوفةً. ولا شكَ أن أرض الكوفة حتى يومنا هذا تحتفظ بتلك الصفات التي ربما اتصفتْ بها قبل أن ينزلها السريان ومن بعدهم العرب. فاسمها والحالة هذه مشتقٌ من سماتها الطبيعية المعروفة قبل قدوم الجماعتين المذكورتين إليها.

ثانياً: إن كلمة «الكُبّ» بالضم وتشديد الباء تعني الحمض باللّغة العربية[٤]. وتعني كلمة «كـوبا»: كب بالسريانية، شوكة. و«كوبا دكملا» بكاف فارسية، عاقول وهو النبات الذي تأكله الابل[٥].

وإذا كانت كلمة الكوفة محرّفةً عن كلمة «كوبا» السريانية فيظهر أن الاسم السرياني المزعوم مأخوذٌ من نباتٍ ربما كان موجوداً بموضع الكوفة قبل أن يطأه السريان ثم العرب من بعدهم، يضاف إلى ذلك أن ياقوت الحموي عند كلامه عن كوفان التي هي والكوفة

---

(١) مباحث عراقية، ج ٢ (بغداد، ١٩٥٥)، ص ٣٢٤ ـ ٣٢٥.
(٢) ماسينون، لويس، خطط الكوفة ـ ترجمة تقي المصعبي (صيدا، ١٩٣٩) ص ٢٥.
(٣) تخطيط مدينة الكوفة (بغداد، ١٩٦٧)، ص ١٣ ـ ١٤.
(٤) الفيزور آبادي، القاموس المحيط، «مادة كبه»، ج ١، ص ١٢١.
(٥) سركيس، المصدر السابق، ج ٢، ص ٣٢٥.

عنده شيءٌ واحدٌ كما أسلفنا، يقول: «والكوفان الدغل من القصب والخشب. . .»[١]. ومن المعلوم أن الحمض الذي تأكله الابل متوفرٌ حتى يومنا هذا بين النجف وكربلاء، وأن الدغل والقصب من النباتات التي تنمو عادةً على حافّات الأنهار ومن بينها موضع الكوفة.

ثالثاً: إن من معاني كلمة «عاقولا» الكلدانية: فتلةٌ، عوجه، لفته، ومن معانيها بالعربية كما هو معلوم، منعطف الوادي أو النهر[٢]. ولذا يكون من المحتمل أن السريان أو العرب بعدهم رأوا ذلك المنعطف حين يمر وادي الفرات بموضع الكوفة، وأطلقوا اسم المنعطف على الموضع الذي بُنيت فيه الكوفة فيكون اسمها والحالة هذه مأخوذٌ من انعطاف الوادي المجاور لها، ولعلّه أقدم تاريخاً من وجود السريان والعرب في الموضع المذكور.

ونستنتج من كل ما سبق أن اسم الكوفة مشتقٌ من النباتات أو الرمال المخلوطة بالحصباء والطين، أو من منعطف الوادي التي أشارت المصادر إلى وجودها قبل قدوم السريان وبعدهم العرب إلى موضع الكوفة.

تمصير الكوفة:

مُصّرتْ الكوفة في عهد الخليفة عمر بن الخطاب، أسسها القائد سعد بن أبي وقاص سنة (١٧ هـ ـ ٦٣٨ م). ويبدو أن تأسيسها تمَّ بعد فحصٍ وتدقيقٍ، وبعد تجربة مواقع أخرى من أرض السواد، وعندما أمر الخليفة عمر سعداً «أن يتخذ للمسلمين دار هجرة وقيروانا»[٣]، وأن لا يجعل بينه وبينهم بحراً[٤] أخذ القائد يبحث عن الوضع المطلوب، فوقع اختياره على الأنبار، ولكنه ما لبث أن تركها لأن الذباب آذى من نزلها من العرب. ثم انتقل سعدٌ من الأنبار إلى موضعٍ آخر فلم يتحقق صلاحه، وحينئذٍ اختار موضع الكوفة واختطّ مدينته الجديدة فيه.

(١) ياقوت، المصدر السابق، ج ٧، ص ٢٩٤ ـ ٢٩٥.
(٢) سركيس، المصدر السابق، ج ٢، ص ٣٢٥.
(٣) القيروان ـ الجماعة من الخيل والقفل ومعظم الكتيبة (الفيروزآبادي، القاموس، مادة (القرن)، ج ٢ ص ٢٥٧). ويبدو أن المقصود الموضع الصالح من الناحية العسكرية.
(٤) البلاذري، المصدر السابق، ص ٢٧٤.

ويظهر من رواية أخرى للبلاذري: أن الخليفة أكَّد على جودة مناخ الموقع المقترح، فطلب من سعدٍ أن يرتاد للمسلمين «موضعاً عدناً...»[١].

ويبدو أن الخليفة أكَّد على توفر الشروط التالية في المحل المقترح:

أولاً: أن يكون الموضع صالحاً لأن يكون محلاً للاستيطان ودار هجرة للمسلمين.

ثانياً: أن تكون مستلزات الدفاع متوفرة فيه.

ثالثاً: أن يكون مناخه جيداً.

ويظهر أن سعداً التزم بتطبيق مقترحات الخليفة ما وسعه ذلك، وحاول سعدٌ أن يستفيد من أهل الخبرة بهذا الخصوص.

روى المسعودي: أن سعداً استشار نفيلة الغساني أثناء بحثه عن موضع المدينة الجديدة، فقال نفيلة لسعدٍ: «أدلُّك على أرضٍ ارتفعت عن البر وانحدرت عن الغلاة. فدلّه على موضع الكوفة اليوم»[٢].

أما ياقوت فيقول: إن سعداً استشار شخصاً يعرف بابن بقيلة، فقال له: «أدلُّكَ على أرضٍ انحدرت عن الفلاة، وارتفعت عن البقة، قال له: نعم، فدلّه (ابن بقيلة) على موضع الكوفة اليوم[٣].

ويقول ياقوت أيضاً عند كلامه عن اللسان من أرض العراق: «وكان مقام سعدٍ بالقادسية بعد الفتح بشهرين، ثم قدم زهرة بن حوية إلى العراق، واللّسان لسان البر الذي أدلعه في الريف عليه الكوفة اليوم والحيرة قبل اليوم... قالوا: ولما أراد سعدٌ تمصير الكوفة أشار عليه من رأى العراق من وجوه العرب باللّسان، وظهر الكوفة يقال له اللّسان... فما كان يلي الفرات منه فهو الملطاط، وما كان يلي البطن منه فهو النجاف. قال عدي بن زيد أبياتاً جاء فيها ذكر اللّسان، كما فيها إشارة إلى موقع الكوفة منها:

ويـــح أُمّ دارٍ حللنــــا بهـــا   بيـــن الثُّـــوَيَّـــةِ والمـــردمـــة[٤]

---

(١) أيضاً، ص ٢٧٤.

(٢) مروج الذهب، ج ٣، (القاهرة، لا.ت)، ص ٢١٢.

(٣) معجم البلدان، ج ٧، ص ٢٩٦ ـ ٢٩٧.

(٤) أيضاً، ج ٧، ص ٣٢٨.

ويروي ياقوت بمعرض كلامه عن الكوفة: «المصر المشهور بأرض بابل من سواد العراق. ويسميها قومٌ خدَّ العذراء...»[١] وروى عن الإمام عليّ (ع) أنه قال: «يا حبذا مقالنا بالكوفة ـ أرض سواءٌ سهلةٌ معروفة ـ تعرفها جمالنا العلوفة»[٢].

أما صلاح موقع الكوفة من الناحية العسكرية، فيبدو أن سعداً أعاره طرفاً من اهتمامه، ويبدو أن شروط الدفاع كانت متوفرة في المدينة الجديدة، لذا سميت كوفة الجند، روى ياقوت بيتاً لأحدهم هذا نصّه:

إن التي وضعتْ بيتاً مهاجرةً بكوفةِ الجُند غالتْ ودَّها غولُ

يضافُ إلى ذلك أن سعداً أخذ بنصحِ الخليفة فلم يترك بحراً أو نهراً بين مدينته الجديدة وبين الصحراء.

وكان لحفظ الاتصال بالصحراء أهمية كبيرة من الناحية العسكرية، إذ يستطيع المسلمون عند ظهور ضروراتٍ عسكريةٍ أن ينسحبوا إلى الصحراء على خيولهم وجمالهم ذوات الحركة السريعة بسهولة ويسر. وقد ساعدهم ذلك في مناسبات عديدة خلال حروبهم مع الروم والفرس على النجاح. وقد أشار إلى ذلك فون كريمر الذي قرر أن تمتع الجيوش الإسلامية بسرعة الحركة، وان استخدام العرب الجمل في حروب الفتح كان من العوامل المساعدة على نجاحهم بتلك الحروب، ويمكننا أن نستنتج مما أوردناه عن موقع الكوفة ما يأتي:

أولاً: صلاح الموقع من الناحية العسكرية.

ثانياً: ملائمة المناخ للسكان الجدد الذين لم يألفوا السكنى في المستنقعات وفي الأرض المعروفة بكثرة البقّ.

ثالثاً: خصوبة المنطقة ووفرة محصولاتها ومراعيها.

ويروى أن محمد بن عمير العطار الذي قال: «الكوفة سفلت عن الشام ووبائها، وارتفعت عن البصرة وحرِّها فهي مريئةٌ مَريعةٌ، إذا أتتنا الشمال ذهبت مسيرة شهر على

(١) أيضاً، ج ٧، ص ٢٩٦.
(٢) أيضاً، ج ٧، ص ٢٩٩.

مثل رضراض الكافور، وإذا هبّت الجنوب جائتنا ريح السواد وورده وياسمينه وأترنجه، ماؤنا عذبٌ، وعيشنا خصبٌ[١]». وقال عليّ بن محمد الكوفي يصف الكوفة:

وأنوارُها مثل برد النبيّ رُدّع بالمسكِ والزعفران[٢]

وقال الطبري: أن سعداً حين نزل الكوفة كتب إلى عمر: «إني قد نزلت بكوفة منزلاً بين الحيرة والفرات، برياً بحرياً، ينبت الحليّ والنصيّ...»[٣].

تخطيط الكوفة واستيطان المسلمين فيها:

بعد أن قرّ رأي سعدٍ بن أبي وقاص على اختيار موضع الكوفة شرع بتخطيط المدينة الجديدة، ويبدو أن المدينة بُنيت في أول الأمر بالقصب وعلى شكل معسكر مؤقت. ذكر الطبري: أن الخليفة عمراً سمح ببناء البصرة والكوفة بالقصب «ثم أن الحريق وقع بالكوفة وبالبصرة» فاستأذن سعدٌ من عمر بالنباء باللّبن فوافق الخليفة بعد أن زوّد قائد جيشه بمقترحات حول تخطيط المدينة وبنائها.

وكان من بين مقترحات الخليفة ما له علاقة بأبعاد طرق المدينة. إذ أنه «أمر بالمناهج ـ الطرق الرئيسية ـ أربعين ذراعاً، وما يليها ثلاثين ذراعاً، وما بين عشرين، وبالأزقة سبع أذرع ليس دون ذلك شيء، وفي القطائع ستين ذراعاً...» وكان أول شيء خُطَّ بالكوفة، وبني حين عزموا على البناء المسجد وقصر الكوفة أو دار الإمارة[٤].

وسنرجىء الحديث عن المسجد والقصر إلى موضع آخر من هذا البحث، المناهج الرئيسة: يقصد بالمناهج الرئيسة، وكانت على رواية الطبري محيطة بالحصن (الميدان) وموزعةً حسب جهاته، كما يأتي:

أولاً: المناهج (١، ٢، ٣، ٤، ٥) في ودعة الصحن (شمالي المسجد).

ثانياً: المناهج (٦، ٧، ٨، ٩) في قبلة الصحن (جنوبي المسجد).

ثالثاً: المناهج (١٠، ١١، ١٢) في شرقي الصحن (شرقي المسجد).

---

(١) الحموي، ياقوت، المصدر السابق، ج ٧، ص ٢٩٨.

(٢) أيضاً، ج ٧، ص ٢٩٤.

(٣) تاريخ الرسل والملوك، ج ٣، (القاهرة، ١٩٣٨)، ص ١٤٧.

(٤) الطبري، المصدر السابق، ج ٣، ص ١٤٨.

رابعاً: المناهج (١٣، ١٤، ١٥) في غربي الصحن (غربي المسجد).

وكان إنزال القبائل وتوزيعها على المناهج مرتباً على الوجه التالي:

أ ـ في شمال المسجد، خصص الطريقان (١، ٢) لسليم وثقيف واحد لكل منهما، وخُصص الطريقان (٣، ٤) لهمدان وبجيلة واحد لكل منهما، أما الطريق الخامس فقُسِّم بين تيم اللاّت وتغلب.

ب ـ في جنوبي المسجد، خُصص الطريق (٦) لبني أسد، والطريق (٧) قُسِّم بين أسد والنخع، والطريق (٨) قُسِّم بين النخع وكندة، والطريق (٩) قُسِّم بين كندة والأزد.

جـ ـ في شرق المسجد. خُصص الطريق (١٠) للأنصار ومزينة، والطريق (١١) خُصص لتميم ومحارب، والطريق (١٢) خصص لأسد وعامر.

د ـ في غربي المسجد، خُصص الطريق (١٣) إلى بجالة وبجلة، والطريق (١٤) خُصص إلى جديلة وأخلاط، وخُصص الطريق (١٥) إلى جهينة وأخلاط.

ويقول الطبري أيضاً: أن القبائل المذكورة كانت تلي الصحن أما «سائر الناس بين ذلك ومن وراء ذلك»[١].

إن المعلومات المتعلقة بترتيب طرق الكوفة وفي أبعادها مسقاةٌ من الطبري، وقد وردت رواية في كتاب البلدان لليعقوبي بشأن عرض الشوارع ربما تخالف ما ذُكِر. فاليعقوبي يقول: «وكتب عمر بن الخطاب إلى سعد أن يجعل سكك الكوفة خمسين ذراعاً بالسواء»[٢]. ونميل إلى القول بعدم وجود خلاف بين رواية الطبري السابقة ورواية اليعقوبي، لأن السكك كانت بمثابة الشوارع الحقيقية، وهي غير الطرق التي عناها الطبري.

ويبدو من رواية البلاذري أن المصادفة لعبت دورها في تقسيم موضع الكوفة بين الجماعتين العربيتين الرئيسيتين وهما أهل اليمن ونزار، يقول البلاذري: «وأسهم لنزار وأهل اليمن بسهمين، على أن من خرج بسهمه أولاً فله الجانب الأيسر وهو خيرهما، فخرج سهم أهل اليمن فصارت خططهم في الجانب الشرقي، وصارت خطط نزار في

(١) أيضاً، ج ٣، ص ١٤٩.

(٢) اليعقوبي، البلدان (النجف، ١٩٥٧)، ص ٧١.

الجانب الغربي»[١] وكان أهل اليمن أكثر عدداً من عرب الشمال. قال الشعبي: «كنا ـ يعني أهل اليمن ـ اثني عشر ألفاً، وكانت نزار ثمانية آلاف، ألا ترى أنّا أكثرُ أهل الكوفة، وخرج سهمنا بالناحية الشرقية، فلذلك صارت خططنا بحيث هي»[٢].

ويبدو أن الاعتبارات العملية هي التي أملتْ على سعد القرارات التي اتخذها عند تخطيطه للمدينة الجديدة، وأن عامل المصادفة الذي أشرنا إليه قبل قليل عند إيراد رواية البلاذري كان ذا أهمية ضئيلة إن لم تكن معدومة، فإنزال نزار بجانبٍ، وأهل اليمن بجانب آخر، أمرٌ اقتضته الاعتبارات القبلية والاختلافات بين الجماعتين العربيتين الرئيسيتين.

أما تخصيص القسم الشرقي، وهو أفضل من القسم الغربي لقربه من الفرات، لأهل اليمن فيبدو أنه كان نتيجة لكثرة عدد أهل اليمن أو لقوتهم، وربما لحسن اختيارهم لأنهم أكثر تمدّناً وأكثر إلفةً للحياة المدنية من القبائل المنتسبة لعرب الشمال.

ويبدو أن اختيار المواقع ضمن المنطقة التي خُصصت لتخطيط المدينة كان موضع اهتمام ذوي العلاقة، فيروي ياقوت: أن سعد بن أبي وقاص ولّى السائب بن الأقرع، وأبا الهياج الأسدي خطط الكوفة. وقال ابن الأقرع لدهقان الفلوجة: «اختر لي مكاناً من التربة، قال: ما بين الماء إلى دار الإمارة، فاختطّ لثقيف في ذلك الموضع»[٣].

وثقيف كما هو معلوم، كانت قبيلة متمدنة يشتغل معظم أفرادها بالتجارة، واهتمامها باختيار موقع سكناها من الكوفة يجعلنا نرجّح أن أهل اليمن ـ وشأن غالبيتهم في اليمن شأن ثقيف ـ هم الذين اختاروا الموضع الجيّد من الكوفة ـ كما أسلفنا ـ ولم يُخصص لهم ذلك الموضع مصادفة.

عدد سكان الكوفة ومساحتها في حدود الثلاثين عاماً التي تلت تأسيسها:

إن المعلومات التي نوردها بصدد مساحة الكوفة وعدد سكانها في الفترة موضوع البحث عرضة للمناقشة، كما أن التقادير التي اقترحتها لعدد السكان كانت تقديرية، ولذا

---

(١) فتوح البلدان ٤، ص ٢٧٥.

(٢) أيضاً، ص ٢٧٦.

(٣) المصدر السابق، ج ٧، ص ٢٩٧.

لا يمكن الجزم بصحتها، وبالرغم من ذلك فإن إيرادها لا يخلو من فائدة:

أولاً: إن الخليفة عمر طلب من القائد سعد أن يختطَّ المسجد الجامع على عدد المقاتلة فخطَّ على أربعين ألف إنسان، فلما قدم زياد بن أبيه زاد فيه عشرين ألف إنسان. وقال الشعبي، ـ كما أسلفنا ـ: إن أهل اليمن إثنا عشر ألف، وأن نزار ثمانية آلاف[(١)]. وروى البلاذري أنه: «كان مع رستم يوم القادسية أربعة آلاف يسمون جند شانشهاه فاستأمنوا على أن ينزلوا حيث أحبّوا... وأنزلهم سعد بحيث اختاروا... وكان لهم نقيب منهم يقال له ديلم فقيل حمراء ديلم»، ثم يقول البلاذري: أن جماعة من الأساورة بعد أن فتح المسلمون قزوين، أتوا الكوفة فأقاموا بها[(٢)].

وفي رواية أخرى قال البلاذري: إن يوسف بن عمر، قال: «نظرت في جماعة مقاتلة البصرة أيام زيادٍ فوجدتهم ثمانين ألفاً، ووجدت عيالهم مائة ألف وعشرين ألف مقاتل وعشرين ألف عيل، ووجدت العرب مقاتلة الكوفة ستين ألفاً وعيالهم ثمانين ألفاً»[(٣)].

ويبدو من الروايات السابقة أن عدد مقاتلة الكوفة العرب، في الفترة موضوع البحث، كان ستين ألفاً، وأن عيالهم ثمانون ألفاً، وأن حمراء ديلم أربعة آلاف، ويقدر عدد عيالهم قياساً على عدد عيال العرب بستة آلاف، وعلى فرض أن عدد الأساورة الذين جاءوا من قزوين ونزلوا الكوفة يقدر بألفين.

وإذا علمنا أن عدداً من السكان العرب لا يدخلون في هذا الإحصاء، لأن الديوان خاصٌّ بالمقاتلة وعيالهم، أما غير الصالحين للقتال فلا ينالون عطاءً من الدولة، ولا تُدرج اسماؤهم في الديوان، يضاف إلى ذلك أن عدد السكان النصارى الذين لا يدخلون في عداد المقاتلة يمكن تقديره بعشرة آلاف، نظراً لأن معظم سكان الحيرة التي أُسست الكوفة على أنقاضها كانوا نصارى، ويترتب على ما سبق، يمكن أن يقدر مجموع سكان الكوفة في الفترة موضوع البحث في حدود المائتي ألف نسمة، وإذا أخذنا

---

(١) ياقوت، المصدر السابق، ج ٧، ص ٢٩٧.
(٢) فتوح البلدان، ص ٢٧٩.
(٣) أيضاً، ص ٣٤٤ ـ ٣٤٥.

عدد دور الكوفة مقياساً لتقدير سكانها لوجدنا أن الرقم السابق يتضاعف لأن عدد دورها كان، على رواية بشر بن عد الوهاب، ثمانين ألفاً[(١)] مع الافتراض بأن كل دارٍ كان يسكنها خمسة أشخاص، ونعتقد أن هذا العدد مبالغٌ فيه للأسباب الآتية:

أ ـ يُقصد بالمقاتلة العرب أفراد الجيش الذين أُنيطت بهم الحروب الداخلية والخارجية في المناطق التابعة للكوفة، سواء كان ذلك في حدود العراق الحالية أو في خارجها، وليس من الضروري أن يسكن جميع هؤلاء في العاصمة، وربما سكن الكثير منهم في مدنٍ ومعسكرات قريبة من الكوفة، وأن إدراجهم بديوان مقاتلة الكوفة لا يعني حصراً أنهم سكنوا فيها.

ب ـ من المحتمل أن أسماء وهمية كانت تُسجّل بالديوان لغرض سحب العطاء، لذا يصعب أخذ العدد المسجل بالديوان أساساً لمعرفة سكان المدينة.

جـ ـ إن مشكلات التموين والإسكان خاصة في فترة تأسيس المدينة تجعل القيام بسدِّ الحاجات الضرورية لعددٍ كبير من السكان أمراً بالغ الصعوبة، لذا لا نحتمل وجود العدد المذكور في مدينة الكوفة في الفترة موضوع البحث.

أما مساحة الكوفة فتقدرها الرواية التي أوردناها عن بشر بن عبد الوهاب قبل قليلٍ بستّة عشر ميلاً وثلثي الميل[(٢)]. ولا نستطيع أن نحدد بالضبط السنة التي جرى فيها التقدير المذكور، ولكننا مع ذلك نعلم أن بشراً هذا كان من موالي بني أمية والحالة هذه معاصرٌ لهم، ومن المعلوم أن الميل يساوي (١٠٦٩) أمتار أو (٣٠٠٠) ذراع بالمقياس القديم[(٣)].

المسجد ودارُ الإمارة:

أولاً ـ المسجد:

كان المسجد أول بناء خُطط ثم شُيّد في الكوفة، ويبدو أن المسجد أُقيم في موضعٍ مرتفع من المدينة. ويحدد البلاذري موضع المسجد، بقوله:

(١) ياقوت الحموي، ج ٧، ص ٢٩٧.
(٢) أيضاً، ج ٧، ص ٢٩٧.
(٣) الذراع الآدمي المعبَّر عنه في كتب الفقه يساوي ٤٧ سنتمتراً، والذراع القديم يساوي ٦١ سنتمتراً.

«ثم وضع سعدٌ مسجدها ودار إمارتها في مقام العالي وما حوله». ثم يبيّن البلاذري: أن مخططي المسجد بدأوا بتعيين جدار القبلة أولاً[١]. وتعيين الجدار المذكور أمرٌ ضروري، لأن تعيين جدار القبلة من شأنه أن يُسهّل تخطيط بقية الجدران، وكان المسجدُ مربّع الشكل يساوي ضلعه رمية سهمٍ ـ حسب رواية البلاذري السابقة ورواية الطبري[٢] ـ.

وفي معرض الكلام عن شكل بناء المسجد يقول الطبري: «فتُرك المسجد في مربعةٍ علوه من كل جوانبه، وبنى ظلّة في مقدمةٍ ليست لها مجنباتٌ ولا مواخيَر والمربعة لاجتماع الناس لئلا يزدحموا... وكانت ظلته مائتي ذراع، على أساطين رخام كانت للأكاسرة سماؤها كأسمية الكنائس الرومية، وأعلَموا على الصحن بخندقٍ لئلا يقتمه أحدٌ ببنيان»[٣].

ويبدو أن موقع المسجد تغيّر بعد فترة قليلة من تخطيطه لأول مرة، وذلك على أثر حصول سرقة ببيت المال الذي كان جزءاً من دار الإمارة الواقعة على مقربة من المسجد، وبعد أن أُخبر الخليفة عمر بحصول السرقة كتب إلى سعد: «أن انقل المسجد حتى تضعه إلى جانب الدار، واجعل الدار قبلتَه... فنقل المسجد وأراغ بنيانه».

ويذهب الطبري إلى أن سعداً طلب من أحد المعماريّين الفرس أن يتولى بناء دار الإمارة والمسجد، فقال المعمار لسعدٍ: «أنا أبنيه لك وابني لك قصراً فأصلهما ويكون بنياناً واحداً. فخطَّ قصر الكوفة على ما خُطّ عليه، ثم أنشأه من نقض آجر كان للأكاسرة في ضواحي الحيرة على مساحته اليوم»[٤].

وجاءت كلمة أراغ على صورة افراغ طبقاً لإحدى النسخ التي اعتمدها ناشر طبعة ليدن للطبري.

---

(١) فتوح البلدان، ص ٢٧٥.

(٢) تاريخ الرسل والملوك، ج ٣، ص ١٤٨.

(٣) أيضاً: ١٤٨:٣. ويرى الجنابي (مسجد الكوفة ص ٢٢). المواخير، «ج» ماخور وهو بيت الريبة والشك ويظهر ـ على زعمه ـ أن النص مصحّف والمقصود به مؤخرة المسجد كما يدل على ذلك سياق الكلام. ومواخير ج مؤخره. القاموس المحيط مادة «اخر».

(٤) أيضاً ج ٣، ص ١٥٠.

ونفيد من الروايات السابقة أن المسجد الذي بناه سعدٌ يتصف بما يأتي:

أولاً ـ كان المسجد مربّع الشكل ذا ظلةٍ أو جزء مسقوف لإيواء المصلّين، وليس له مجنباتٌ ولا مؤخرة، وإن قبلته منحرفةٌ قليلاً عن الاتجاه الذي يحدده علم الهيئة القديم.

ثانياً ـ لم يكن المسجد مسوّراً لذلك أعلموا على الصحن بخندقٍ لئلا يقتحمه أحدٌ ببنيان، هذا من جهة، ومن جهة أخرى أن الطبري روى عن عطاء مولى إسحاق بن طلحة، أنه قال: «كنتُ أجلس في المسجد الأعظم قبل أن يبنيه زياد، وليست له مجنباتٌ ولا مواخير، فأرى منه دير هندٍ وباب الجسر»[١].

ومن الجدير بالذكر أن الموضعين الواردين في النّص السابق يقعان بالقرب من الفرات كما يظهر على الخريطة التي تخيّلها ماسنيون لمدينة الكوفة.

ثالثاً ـ يبدو أن ضعفاً ظاهراً في رواية الطبري السابقة القائلة: بأن المسجد والقصر بنيا من نقضِ آجرٍ كان مستعملاً ببناء الأكاسرة يقع في ضواحي الحيرة، ويعود ذلك الضعف للأسباب الآتية:

أ ـ بُعدُ المسافة بين الكوفة والحيرة، كانت المسافة بين موضع المدينة الجديدة والحيرة تبلغ ثلاثة أميال[٢].

ولا شكَ أن كلفة نقل الأنقاض من مسافة كهذه تكون كبيرة. ب ـ إن كلفة نقض الأجر من بناءٍ قائم، ثم كلفة تنظيفه ليكون صالحاً للاستعمال مجدداً ربما تزيد على كلفة عمل آجرٍ جديدٍ، لا سيما إذا علمنا أن الحطب الذي يُشوى به اللّبن ليصبح آجراً، متوفر في الكوفة حيث أُقيم البناء الجديد.

ج ـ إن الطابوق المنقوض من بناء قديم يتعرّض للكسر في الغالب، ثم يصعب استعمال الجصّ كمادة لاصقة له بعد نقضه. يضاف إلى ذلك أن أجراً بهذه الصفة لا يصلح أن يُستعمل لإقامة بناء ذي أهمية كما هي الحال في بناء المسجد ودار الإمارة في الكوفة.

د ـ إن التنقيبات الأثرية التي أجرتها مديرية الآثار العراقية تؤيد ما ذهبت إليه

---

(١) أيضاً ج ٣، ص ١٥١.

(٢) اليعقوبي، البلدان (النجف، ١٩٥٧)، ص ٦٩.

بخصوص موادّ البناء المستعملة في مسجد الكوفة ودار إمارتها.

قال الدكتور الجنابي: «أثبت البحث الأثري أن مادّة البناء المستعملة هي الآجر والجصّ، وبعد الفحص الدقيق ثبت لدينا أن الآجر المستعمل في بناء الدار جميعه من صنع محلي غير مختلفٍ ولا مهشم ولا منزوع أو منقول من محل آخر وبقياسٍ متناسب... وهذا بخلاف ما زعمه الرواة من أن سعد بن أبي وقاص قد بنى دار الإمارة في الكوفة بآجر انتزعه من بنيان للأكاسرة في الحيرة»(١).

ثانياً: دار الإمـــارة:

كانت دار الإمارة التي بناها سعد واقعة على مقربة من المسجد الجامع.. وكانت تلك الدار تضم بين محتوياتها بيت مال الكوفة. قال الطبري عند كلامه عن بناء مسجد الكوفة في عهد سعد: «وبنوا لسعدٍ داراً بحيالة (المسجد) بينهما طريق منقب مائتي ذراع، وجعل فيها بيوت الأموال وهي قصر الكوفة اليوم، بنى ذلك له روزبه من آجر بنيان الأكاسرة بالحيرة».

ويبدو أن المسجد والدار كانا وسط ميدان حظرت السلطات البناء فيه، ولكنها سمحت للناس أن يتخذوا مواضعهم في الميدان المذكور لغرض البيع والشراء.

ويظهر أن الأوضاع التي وصفنا استمرت طيلة خلافة عمر، قال الطبري أيضاً: فكان الصحن على حالِه زمان عمر كله لا تطمع فيه القبائل، ليس فيه إلاّ المسجد والقصر والأسواق في غير بنيان ولا أعلام، وقال عمر: «الأسواق على سنّةِ المساجد من سبق إلى مقعدٍ فهو له حتى يقوم منه إلى بيته أو يفرغ من بيعه»(٢).

واستقر موضع القصر قبلة المسجد وذلك على أثر تغييّر أُجري في ذلك الموضع بعد حصول سرقة في بيت المال، وعندما أُخبر الخليفة بذلك كتب إلى سعد قائلاً: «ان انقلْ المسجد حتى تضعه إلى جنب الدار، واجعل الدار قبلته... فنقل المسجد»(٣).

ويظهر أن سعداً أحكم بناء القصر وحصّنه من الناحية العسكرية، ومنع الناس من

---

(١) مسجد الكوفة، (بغداد، ١٩٦٦)، ص ٧٩.
(٢) الطبري، ج ٤، ص ١٤٩.
(٣) أيضاً، ج ٣، ص ١٥٠.

الدخول إليه بمحض إرادتهم، وأغضب الناس إجراء الأمير، فرفعوا الأمر للخليفة الذي ما لبث أن أرسل رسولاً يحمل كتاباً إلى سعد، قال فيه: «بلغني أنك بنيت قصراً اتخذته حصناً ويسمى قصر سعد، وجعلت بينك وبين الناس باباً، فليس بقصرك ولكنه قصر الخبال»[١]، وقد أوضح سعد وجهة نظره لرسول الخليفة، ووصف الأخبار التي وصلت العاصمة بأنها مبالغ فيها.

ونختم الحديث عن دور تأسيس المسجد وقصر الإمارة بما يأتي:

أولاً: إن مواد البناء التي استعملت في بناء دار الإمارة شأنها شأن التي استعملت في بناء المسجد، كانت مستحدثة وليست منقوضةً من أبنيةٍ ايرانيةٍ قديمة، وقد فصّلنا ذلك عند كلامنا عن المسجد.

ثانياً: إن وصف الخليفة لدار الإمارة بأنها قصراً، وإنها حصن، يدلُّ على أن النواحي العسكرية ومقتضيات الأمن كانت موضع الاهتمام عند تخطيط تلك الدار وبنائها.

ثالثاً: إن تحويرات أُدخلت على موضع المسجد وقبلته حتى تتوفر مستلزمات الأمن لبيت مال الدولة والسلامة والراحة لممثلها في الكوفة.

أما مساحة مسجد الكوفة فليس لدينا عنها إلاّ روايةٌ واحدةٌ متأخرةٌ لذا لا نستطيع الجزم فيما إذا كانت تلك المساحة أُخذتْ للمسجد عند تأسيسه أو بعد إعادة بنائه من قِبَل زياد كما سنشير في الصفحات التالية.

قال ياقوت: أن الشعبي، قال: «مسجد الكوفة ستّة أجربة وأقفزة، وقال زاد نفروخ: هو تسعة أجربة...»[٢]. والجريب والقفيز كمقياسين للطول يساويان على التوالي ٣٩١٧ م^{٢} و ٣٩١,٧ م^{٢} [٣].

ومن الجدير بالذكر أن طائفةً من الكتّاب يشكّون في صحة الاتجاه القائم لقبلة مسجد الكوفة، وقد تطرق إلى ذلك السيد البراقي في كتابه تاريخ الكوفة[٤]، ونقل رواية

(١) أيضاً، ج ٣، ص ١٥١.
(٢) معجم البلدان، ج ٧، ص ٢٩٨.
(٣) الدباغ عبد الوهاب، النخيل والتمور في العراق، بغداد، ١٩٥٦، ص ١٢٤.
(٤) طبع الكتاب المذكور في النجف، ١٩٦٠ م، ص ٤٢ ـ ٤٤.

عن المجلسي مفادها، أن محراب مسجد الكوفة منحرف عن يمين نصف النهار نحواً من أربعين درجة، وهو قريب من قبلة أصفهان.

وعلّل المجلسي أمر الأئمة (ع) لشيعتهم بالتياسر عن اتجاه القبلة المتعارف عليه في مسجد الكوفة بأنه ناتج عن أن تحديد اتجاه القبلة لم يجرِ بصورة صحيحة عند بناء عدد من المساجد القديمة في العراق بما فيها مسجد الكوفة، ونميل إلى أن إنحراف القبلة في المسجد ناتجٌ عن التغييرات التي أجراها سعدٌ في بناء المسجد ليناسب قصر الإمارة كما جاء في رواية الطبري التي أشرنا إليها فيما سبق من البحث، وتؤكد البحوث الأثرية وجود إنحرافٍ في قبلة المسجد قدره سبع عشرة درجة[١].

التغييّرات التي أدخلت على مسجد الكوفة بعد تأسيسه:

لقد حصلت تغييّرات عديدة في المسجد بعد تأسيسه في عهد سعد بن أبي وقاص، وتناولت تلك التغييّرات مساحة المسجد، وبعض موادّ البناء المستعملة فيه بما في ذلك المواد التي كانت تغطّي صحنه، وما إلى ذلك من تغييّرات. قال البلاذري في معرض كلامه عن المسجد: «ثم أن المغيرة بن شعبة وسّعَه وبناه زيادٌ فأحكمه... وكان زياد يقول: أنفقت على كل إسطوانة من أساطين مسجد الكوفة ثماني عشرة مائة»، ويقول أيضاً: إن المغيرة زاد في مسجد الكوفة وبناه ثم زاد فيه زياد، ثم شرح البلاذري الأسباب التي دعت زياداً إلى تبليط فناء المسجد بالحصى، كما بيّن أن زياداً: «اتخذ في مسجد الكوفة مقصورة ثم جدّدها خالد بن عبد الله القسري»[٢].

ومن أسباب بناء المقصورة خوف الأمير من الاغتيال أثناء الصلاة، أو أنها تجسيد للقوة، أما الطبري فيبيّن ما صنعه زياد حين عزم على بناء المسجد، بقوله: «ولما أراد زياد بنيانه دعا ببنّائين من بنّائي الجاهلية فوصف لهم موضع المسجد وقدره وما يشتهي من طوله في السّماء، وقال: اشتهي من ذلك شيئاً لا أقع على صفته، فقال له بنّاءٌ: قد كان بناءً لكسرى لا يجيىء هذا إلاّ بأساطين من جبال أهواز، تُنقر ثم تُثقب ثم تحشى بالرصاص، وبسفافيد الحديد فترفعه ثلاثين ذراعاً في السماء، ثم تسقفه وتجعل له

(١) الجنابي، مسجد الكوفة، ص ٢٩.
(٢) البلاذري، فتوح، ص ٢٧٥ ـ ٢٧٦.

مجنباتٍ ومواخير فيكون أثبت له، فقال (زياد): هذه الصفة التي كانت نفسي تنازعني إليها ولم تعبرها»[١].

ويبدو أن تغييّرات أخرى حصلت في المسجد بعد أن أحكم زياد بناءه، يقول ياقوت: «ولمّا بنى عبيد الله (بن زياد) مسجد الكوفة جمع الناس، وقال: يا أهل الكوفة، قد بنيت لكم مسجداً لم يكن على وجه الأرض مثله، وقد أنفقت على كل إسطوانة سبع عشرة مائة، ولا يهدمه إلاّ باغ أو جاحد، وعلى رواية ثمان عشرة مائة».

وفي رواية أخرى يقول ياقوت: «وبعد أن بناه ابن زياد سقط منه شيء فهدمه الحجّاج، وبناه ثم سقط بعد ذلك الحائط الذي يلي دار المختار، فبناه يوسف بن عمر»[٢].

ويبدو أن التغييّرات التي طرأت على مسجد الكوفة في عهد يوسف بن عمر الذي تولى العراق في سنة ١٢٠ هـ، كانت آخر ما دخل على المسجد من تغييرٍ في عهد بني أمية، وهو العهد الذي تناولناه في هذا البحث.

يضاف إلى ذلك: أن المعلومات المتوفرة عن التغييّرات التي أحدثها في المسجد ولاة بني أمية بعد زياد بن أبيه، لا تبيّن طبيعة تلك التغييّرات، ونتيجة لذلك لا يستطيع الباحث أن يرسم صورة واضحة للتطورات التي حصلت في مسجد الكوفة خلال العصر الأموي الذي تلى حكم زياد. وبعد أن يستعرض الدكتور الجنابي النصوص الواردة في صدد ما حصل على المسجد من تغييّرات بعد زياد يقول: «وقد لاحظنا من هذه النصوص، إنها لم تعن بالحديث المفصَّل عن المسجد من ناحية تقسيمه وموادّ بنائه وأساطينه إلى غير ذلك»[٣].

الأحوال الاقتصادية في الكوفة:

سنورد فيما يلي من الصفحات معلوماتٍ عامةٍ عن الأحوال الاقتصادية في الكوفة خلال الفترة موضوع البحث.

---

(١) تاريخ الرسل والملوك، ج ٣، ص ١٥٠.
(٢) معجم البلدان، ج ٧، ص ٢٩٩.
(٣) مسجد الكوفة، ص ٢٥.

أنشأت مدينة الكوفة في منطقة واقعة في أطراف السواد وعلى مقربة من الفرات. وكان لموقعها هذا أثر مهم في حياتها الاقتصادية، وذلك أنها أصبحت بفضله مركزاً اقتصادياً مهمّاً لمنطقة زراعية، تُنقل محصولاتها من الكوفة وإليها عن طريق الفرات بسهولة، وبأثمان مناسبة.

ويقول اليعقوبي عند كلامه عن الكوفة: «وهي على معظم الفرات، ومنه شرب أهلها، وهي من أطيب البلدان، وأفسحها وأغذاها»(١). وكان جانب الكوفة الممتد مع الفرات والواقع بينها وبين الحيرة يسمى الملطاط(٢) أو السبخة.

والملطاطُ حسب رواية الطبري: «ما كان لآل كسرى على جانب الفرات الذي يلي الكوفة»، ويبدو أن الملطاط كان منطقة خصبة من السواد، وأن أحد ولاة عثمان أراد أن يحوزه لنفسه وذات مرة تمنى أحد الكوفيّين أن يكون الملطاط لسعيد بن العاص والي عثمان على الكوفة فلامه من حضر في المجلس من رؤوساء القبائل على ذلك القول، لأن الملطاط جزء من السواد الذي هو في نظرهم لأهل الكوفة جميعاً وليس للأمير وحده(٣).

ويبدو أن عدداً كبيراً من عرصات دور السكن في الكوفة منحتها الدولة للقاطنين الجدد دون مقابل، ولمّ ا كانت أرض الكوفة مفتوحة عنوة يستطيع الخليفة أو من يمثله أن يمنحها لمن يشاء على تأويل تحقق مصلحة المسلمين في ذلك، قال البلاذري: أن سعداً لما اختطّ الكوفة أقطع الناس المنازل(٤). ويورد اليعقوبي قائمةً بأسماء من أقطعهم الخليفة ومن أقطعهم سعدُ عرصاتٍ في الكوفة، وكان عددٌ من الصحابة الذين قدموا مع الجيش الفاتح للكوفة من بين من أقطعهم عمر. فاقطع الخليفة عمر جبير بن مطعم مثلاً عرصة فبنى عليها داراً، واستقطع سعدٌ لنفسه الدار التي عرفت فيما بعد بدار عمر بن سعد(٥).

---

(١) البلدان، ص ٦٩.
(٢) البلاذري، المصدر السابق، ص ٢٧٧.
(٣) التاريخ ٣: ٣٦١.
(٤) فتوح البلدان، ص ٢٧٤.
(٥) البلدان، ص ٧٠ ـ ٧١.

وكان من بين الصحابة الذين أُقطعوا دوراً بالكوفة الزبير بن العوام وطلحة، روى المسعودي: أن الزبير بنى دوراً بمصر والكوفة، وأن طلحة ابتنى داره بالكوفة المعروفة بالكناس بدار الطلحتين، وكانت غلّته من العراق كل يوم ألف دينار وقيل أكثر من ذلك[١]، كما أقطع سعدٌ أبا موسى الاشعري نصف الآري، وكان فضاءً عند المسجد، وأقطع حذيفة بن اليمان مع جماعة من عبس نصيف الآري[٢]، ويبدو من النص السابق أن طلحة كان من بين الملاّكين الكبار في العراق. ومع هذا لا نستطيع أن نعلم مقدار أملاكه في الكوفة خاصة.

ويبدو أن الخلفاء الأمويين دأبوا على إقطاع العرصات للمقرّبين من رجال الدولة، ومن القطائع التي أقطعوها والتي ورد اسمها بالمصادر منطقة تُعرف بدار الروميّين التي كانت مزبلةً لأهل الكوفة، وأقطعها يزيد بن عبد الملك لعنبسة بن سعيد بن العاص، فنقل ترابها بمائة وخمسين ألف درهم[٣].

أما الأسواق، فيظهر أنها كانت موضع عناية السلطات منذ تخطيط المدينة، وسبق أن أشرنا عند كلامنا عن تخطيط المسجد ودار الإمارة، إلى أن عمر أباح الجلوس للباعة في المواضع المعدَّة للبيع والشراء حسب السبق على سنّة الجلوس في المساجد. ويبدو أن الاجراء المذكور كان مؤقتاً، إذ ما لبثت السلطات أن أقامت سوقاً معيناً، قال اليعقوبي: «وجعلت السوق من القصر والمسجد إلى دار الوليد إلى القلائين إلى دور ثقيف وأشجع، وعليها ظلال يوارى إلى أيام خالد بن عبد الله، فأنه بنى الأسواق وجعل لإهل كل بياعةٍ داراً وطاقاً، وجعل غلالها للجند...»[٤].

ونفيد من النص السابق أن خالد بن عبد الله القسري، وهو معروف بمقدرته في الاقتصاد، بجمعه أهل كل بياعةٍ في مكان واحد، راعى النظام الذي عُرف فيما بعد بنظام الأصناف، وهو جمع أهل كل حرفة بمنطقة وإيجاد روابط مهنية فيما بينهم، يُضاف إلى ما سبق أن الأسواق، ـ كما يبدو من النص ـ كانت غلاّتها أو إيجارها تعود للقطّاع العام.

(١) مروج الذهب، ج ٢، ص ٢٢٢ ـ ٢٢٣.
(٢) البلدان، ص ٧٠.
(٣) البلاذري، فتوح البلدان، ص ٢٨٠.
(٤) البلدان، ص ٧١.

ويبدو أن عدداً من الناس ملكوا ثروات كبيرة في الكوفة، وكان الزبير وطلحة كما أشرنا سابقاً من بين هؤلاء، وقد ورد بالمصادر أن عدداً من العرصات أو الفسح الكبيرة التي عرفت بالصحارى كانت تنسب إلى أشخاص معينين، ومن المحتمل أن هؤلاء كانوا في الأصل يملكون تلك القطع، وكان من بين تلك الصحارى صحراء أثير نُسبت إلى رجل من بني أسد يقال له أثير.

ومن الجدير بالذكر أن الاسم المذكور جاء مصحفاً بخريطة ماسينون النسخة العربية، فورد باسم (عثير) بدلاً من (أثير). وكان من بين تلك الصحارى صحراء بني قرار، ودار الروميّين التي كانت مزبلة قبل منحها إلى عنبسة بن سعيد كما أسلفنا. وكذلك صحراء شبث بن ربعي، وصحراء البردخت الشاعر الضبي، وكان لبني بجلة منطقة تعرف بشهارسوج وتعني المنطقة ذات الأربع جهات، وكان لعرزم جبّانة يُضرب فيها اللّبن ويبيعه للناس.

ووجد بين الكوفيين من يملك قصوراً وقرى، وكان حسان بن مالك يملك قصراً بالكوفة، وكان صلاية بن مالك يملك قرية أبي صلاية على الفرات[1].

قنطـرة الكـوفة:

إن وجود جسر على الفرات بجوار الكوفة أمرٌ له أهميّته في الحياة الاقتصادية لسكان تلك المدينة. فالجسر يربط مدينة الكوفة براً بأرض السواد الواقعة عبر الفرات، كما أن وجوده يسهّل تصدير البضائع من الكوفة إلى الأقطار الأخرى وتوريد تلك البضائع منها للكوفة.

يضاف إلى ذلك أن وقوع الكوفة على طريق الحجّ البري يجعل القوافل القاصدة للحجاز والعائدة منه تعبر الفرات عن طريق الجسر المذكور، ويحدّثنا البلاذري عن قنطرة الكوفة، فيقول في إحدى رواياته أن عمر بن هبيرة الفزاري هو الذي أحدث قنطرة الكوفة، وكان عمر بن هبيرة هذا قد تولى الكوفة سنة ١٠٣ هـ، ويورد البلاذري رواية أخرى عن القنطرة المذكورة مفادها: أن أول من بنى القنطرة رجلٌ من العُبّاد في الجاهلية، ثم سقطت فاتخذ من موضعها جسراً، ثم بناها في الإسلام زياد ابن أبيه، ثم

(١) البلاذري، فتوح البلدان ص ٢١٠ وما بعدها.

ابن هبيرة، ثم خالد بن عبد الله، ثم يزيد بن عمر، ثم أُصلحت بعد بني أمية مرات[١].

ويبدو أن الرواية الأخيرة أقرب إلى التدقيق للسببين التاليين:

أولاً: أن الحيرة كانت قائمة مقام الكوفة بكونها أهم مدينة في المنطقة، ويعسرُ أن تزدهر الحيرة ما لم يربطها بمنطقة السواد جسرٌ على الفرات.

ثانياً: ليس من السهل أن يبقى الفرات دون قنطرة عند الكوفة طيلة ما يربو على الثمانين عاماً التي مرت على تمصيرها قبل أن يليها الفزاري.

يضاف إلى ذلك: أن الكوفة كانت طيلة المدّة المذكورة عاصمة من عواصم العراق المهمّة، وكانت الأقسام الخصبة المجاورة لها من السواد تُدار منها، فلا يمكن والحالة هذه أن يفصل العاصمة نهرٌ عن البلاد التي تحكمها دون وجود جسر يسهّل العبور منها والعودة إليها.

ثالثاً: ورد ذكر لوجود جسرٍ على الفرات عند الكوفة قبل التاريخ الذي حدده البلاذري بروايته بنحو ٣٠ عاماً[٢].

التجارة والنقود والصيرفة في الكوفة:

حلّت الكوفة بعد تمصيرها محلّ مدينة الحيرة التي كانت من المدن التجارية الواقعة على طرق القوافل القادمة من البادية المجاورة لها من الجنوب، ولذا أصبحت محلاً لتبادل البضائع بين أصحاب البادية وسكان السواد الذين كانوا تحت الحكم الإيراني[٣]. وربما أصبحت الكوفة أهمّ مركز للتموين في المنطقة بعد أن كانت الأنبار الواقعة بالقرب منها تقوم بتلك المهمّة في العهد الساساني.

قال البلاذري: «وإنما سميت الأنبار لأن اهراء العجم كانت بها، وكان أصحاب النعمان وصنائعه يعطون أرزاقهم منها[٤]. وبعد أن أصبحت الكوفة عاصمة القسم الشرقي من العراق ومنها تموّن الجيوش الشرقية من البلاد الإسلامية، كما يدلُّ على ذلك تسميتها

(١) فتوح البلدان، ص ٢٨٥.
(٢) الطبري، ج ٥، ص ٤٢.
(٣) ماسنيون، المصدر السابق، ص ٦.
(٤) فتوح البلدان، ص ٢٤٧.

بكوفة الجند ـ كما أسلفنا ـ وتأسيس دار الرزق[١] فيها، ترتب على ذلك أن تنشط فعالياتها التجارية والمالية.

ويبدو أن الكوفة في عهد الحجّاج كانت من المناطق التي تُجبى عندها الرسوم الكمركية على البضائع المنقولة في السفن، ذكر ابن سعد: أن الحجّاج أرسل على شقيق بن سلمة الأسدي المعروف بأبي وائل وكان شيخاً مسنّاً.. وقال له: «إنّا نريد أن نستعملك على بعض عملنا قال (أبو وائل): قلت على أيِّ عمل الأمير. قال السلسلة... قال: قلت ان السلسلة لا يصلحها إلاّ رجالٌ يقومون عليها ويعملون عليها، فان تستعن بي تستعن بشيخ أخرق ضعيف يخاف عمال السوء[٢]. ويقصد بالسلسلة هنا السلاسل التي يُربط بها طرفي النهر لتمنع السفن من العبور حتى تؤدي ما يترتب على البضائع التي تحملها من الرسوم الكمركية وهو ما يعرف بالمآصر.

ويبدو أن وحدة النقود الشائعة في منطقة الكوفة خلال فترة تمصيرها كانت الدرهم، وكانت أوزانه مختلفة فبعض الدراهم كانت تكوّن من خمس وحدات وزنٍ وبعضها من سبع وحدات وزن، قال البلاذري: إن خالداً حين فتح الحيرة وجد أن أهلها «كانوا ستة آلاف رجلٍ، فألزم كلَّ رجلٍ منهم أربعة عشرة درهماً وزن خمسة، فبلغ ذلك أربع وثمانين ألفاً وزن خمسة تكون ستين وزن سبعة[٣]. وكان الدرهم كوحدة للنقد هو الشائع في العراق قبل الفتح الإسلامي، وبقي كذلك في العهد الأموي[٤].

ويبدو أن الدينار كوحدة للعملة كان معروفاً في العراق قبل الفتح الإسلامي إذ وجد ما يُعرف بالدينار الكسروي[٥]. كما استعمله المسلمون بمثابة وحدة للنقد بجانب الدرهم، خاصة بعد أن ضرب عبد الملك بن مروان الدراهم والدنانير كما هو معروف.

وقد وردت إشارات إلى ضرب نقود من قبل الخلفاء الراشدين والأمويين، ولكنها جاءت فيما يتعلق بمكان ضربها، مرة مقرونة بالعراق، وأخرى بالكوفة، وثالثة دون

(١) الطبري ٢: ٦٤٦، وماسنيون، المصدر السابق، ص ٢٢.
(٢) الطبقات، ج ٦ (ليدن، ١٣٢٥) ص ٦٦.
(٣) فتوح البلدان، ص ٢٤٥.
(٤) الحسيني، محمد باقر، تطور النقود العربية، ص ٦١، الاسلامية (بغداد: ١٩٦٩).
(٥) المقريزي، النقود الإسلامية (النجف، ١٩٧١) ص ٤٦.

تخصيص، فالدراهم ضُربت على الطراز الساساني من قبل عمر وعثمان وعلي[(١)]. ولم يخص مكان ضرب تلك النقود، على ما أعلم، سوى درهمٍ يحمل كلمة (ولي الله) ضربه والٍ لعليّ (ع) في الري سنة ٣٧ هـ[(٢)].

ويحدثنا الدكتور الحسيني عن ضرب النقود في الفترة الأموية، فمصعب بن الزبير ضرب الدراهم على الطراز الساساني في العراق، وفي زمن الحجاج ضرب دراهم جديدة بأمر عبد الملك، وفي سنة ٧٩ هـ، تم تعريب الدراهم.

ووصلتنا نماذج من الدراهم المعربة من ضرب الكوفة، وتولى بعد الحجاج إدارة ضرب الدراهم الفضية إضافة إلى غيرها من النقود عمر بن هبيرة والي العراق ليزيد الثاني (١٠١ ـ ١٠٥ هـ) وخالد بن عبد الله القسري والي هشام بن عبد الملك (١٠٦ ـ ١٢٠ هـ) ويوسف بن عمر والي الوليد بن يزيد (١٢٠ ـ ١٢٦ هـ). وكانت هذه الدراهم تعرف بأسمائهم، فيقال الهبيرية والخالدية واليوسفية، وهي أجود نقود بني أمية.

وضرب الخارجي الضحاك بن قيس الشيباني بالكوفة سنة ١٢٨ هـ، نقوداً فضية[(٣)] ويشير البراقي إلى وجود دار لضرب النقود الإسلامية في الكوفة خلال الفترة موضوع البحث[(٤)].

ولمّا كانت الكوفة في الفترة التي تناولها بحثنا من أهم مدن العراق، وأنها تحتوي على دارٍ لضرب النقود كما أشار النقشبندي وقبله البراقي، نرجّح أن معظم الدراهم الوارد ذكرها في أعلاه ضربت فيها[(٥)]. وقد وردت إشارة في البلاذري إلى وجود حوانيت للصيارفة في الكوفة[(٦)].

ونستنتج من كل ما سبق أن الكوفة في الفترة موضوع البحث كانت ذات مركز تجاري ومالي مهيمن لا في العراق وحسب بل في الامبراطورية الاسلامية عامةً.

(١) النقشبندي، ناصر الدينار الأموي والعباسي، ج ١ (بغداد، ١٩٥٣) ص ١٨.
(٢) الحسني، ص ٥١.
(٣) أيضاً، ص ٤٨، ٥٠، ٦٤.
(٤) تاريخ الكوفة، ص ٢٥٧.
(٥) المصدر السابق، ص ٢٢١.
(٦) فتوح البلدان، ص ٢٨٤.

بين أهل الكوفة ومشاهير حكّامهم:

ينحصر هدفنا فيما يلي من البحث بإيراد طائفة من المعلومات ذات الصلة بتصرف أهل الكوفة تجاه من حكموا بلادهم، كما نورد ما لها صلة بتصرف أولئك الحاكمين تجاه رعاياهم من الكوفيين، وذلك خلال الفترة التي تناولها بحثنا.

كان سعد بن أبي وقاص ـ كما أسلفنا ـ من مشاهير ولاة الكوفة في عهد عمر بن الخطاب، وكان سعد من الولاة القديرين، قال البلاذري: أن عمر سأل عمرو بن معدي كرب عن سعدٍ وعن رضا الناس عنه؟ فقال عمرو للخليفة: «تركته يجمع لهم جمع الذرة، ويشفق عليهم شفقة الأم البرة، إعرابيٌّ في غرته، نبطي في جبايته، يقسم بالسوية، ويعدل في القضية، وينفذ بالسوية»[١]. كما أن نجاح سعدٍ في تمصير الكوفة يدلّ على جدارته، ويبدو أن معاملته لأهل الكوفة كانت جيدة، وسبق أن بيّنا أنه أقطع الناس عرصات لبناء دور عليها، وعندما أرسل الخليفة لجنة للتحقيق في شكوى طائفة من أهل الكوفة من تصرفات سعدٍ، قدِم أعضاؤها للكوفة وجعلوا: «لا يأتون مسجداً من مساجدها إلاّ قالوا خيراً، وأثنوا معروفاً، حتى أتوا مسجداً من مساجد بني عبس، فقال رجلٌ منهم: أما إذا سألتمونا عنه، فأنه كان لا يُقسم بالسوية، ولا يعدلُ في القضية»[٢].

ومن التهم التي وجهها جماعة من الكوفييّن لسعد، «أنه لا يُحسن الصلاة»[٣]، وسبق أن بيّنا أن بعضهم اتهمه بالتكبّر وأنه بنى قصراً وصفة الخليفة بقصر الخبال، وأرسل من يحرق بابه، ويظهر أن الخليفة ما لبث أن أصغى لوشاية الكوفييّن بسعدٍ فعزله، ويبدو أن سعداً نفسه كان غير مرتاح لتصرف أهل الكوفة تجاهه، فقال ذات مرّة لهم: «اللّهم لا ترضي عنهم أميراً ولا ترُضهم بأمير»[٤].

كما يبدو أن معظم التهم التي وجهت إليه كانت مهلهلة خاصة تلك التي تصفه بأنه لا يُحسن الصلاة، ثم أن إتخاذ القصر ومنع الناس من دخوله عندما يرغبون كانا من

(١) البلاذري، المصدر السابق، ص ٢٧٨.
(٢) أيضاً، ص ٢٧٧.
(٣) أيضاً، ص ٢٧٧.
(٤) أيضاً، ص ٢٧٨.

مقتضيات حفظ هيبة السلطة وترسيخ النظام.

وبعد سعدٍ ولّى عمر عمار بن ياسر على الكوفة، فاجتهد في حفظ النظام ولكن أهلها شغبوا عليه: «وقالوا ضعيفاً لا علم له بالسياسة فعزله» الخليفة ثم أظهر تذمره من تصرف أهل الكوفة مع ولاتهم[١]، وقد ولي المغيرة بن شعبة الكوفة في عهد عمر ثم في عهد معاوية ولكنه كان متهماً في خُلقِه[٢]، وغير مبتكرٍ في سياسته[٣]، وقد تولّى الحكم في الكوفة في عهد عثمان ولاةٌ منهم: الوليد بن عقبة أخ عثمان من أمه، وسعيد بن العاص.

أما الوليد، فيبدو أنه كان غير مؤهل للحكم وقد تعجّب سلفه سعد بن أبي وقاص من إسناد ولاية الكوفة للوليد، ولكن الوليد بدد عجبه حين قال قاصداً عثمان وبني أمية، أن «القوم ملكوا فاستأثروا». وقال الناس في الكوفة: «بئسما ابتدلنا به عثمان، عزل أبا اسحاق الهيّن الليّن الجسر صاحب رسول الله (ص) وولّى أخاه الفاسق الفاجر الأحمق الماجن»[٤]. ويُستدل من هذا القول إن حكم أهل الكوفة على سعدٍ ـ والذي أشرنا إليه قبل قليل ـ كان غير عادل، وعندما تولّى سعيد بن العاص ولاية الكوفة أثار قضية منطقة الملطاط التي أثارت جماعة من أهل الكوفة كما أسلفنا، كما أنه أثار مشكلات لعثمان في الكوفة ذات أهمية بالغة، فقال سعيد يوماً: «إنما السواد بستان قريش» فقال مالك الاشتر الزعيم الكوفي المعروف: «أتجعل مراكز رماحنا وما أفاء الله علينا بستاناً لك ولقومك والله لو رامه أحد لقُرِع قرعاً»[٥].

ويُستدلّ من نكران أهل الكوفة لادعاء أرستقراطية قريشٍ بالاستحواذ على خيرات البلاد دون بقية القبائل العربية، على حيويتهم وعمق تفكيرهم، ونشأ من شدّة اهتمامهم بالقضايا العامة، بما فيها قضية ملكية السواد، أنهم كانوا في طليعة المسلمين الذين أطاحوا بحكم عثمان، وبعد أن آل الحكم في الكوفة للإمام عليّ (ع) لم تمنح غالبية

---

(١) أيضاً، ص ٢٧٨.
(٢) أيضاً، ص ٢٧٨.
(٣) فلهاوزن، الدولة العربية وسقوطها ـ ترجمة عبد الهادي أبو ريده (القاهرة، ١٩٥٨)، ص ١١٠.
(٤) البلاذري، أنساب الأشراف، ج ٢ (القدس، ١٩٣٦)، ص ٢٩ ـ ٣٠.
(٥) البلاذري، أنساب، ج ٢، ص ٤٠.

أهلها ولاءها التام له، ولم يستجب لندائه من أهلها حين انتدبهم لقتال الثائرين على حكمه في البصرة إلاّ شطرٌ صغيرٌ من سكانها، وقد انصاع الكثيرون منهم لنداء أبي موسى الأشعري الذي دعاهم للقعود عن نصرة الخليفة الجديد.

قال المسعودي: إن علياً كتب إلى أبي موسى الأشعري، «ليستنفر الناس، فثبّطهم أبو موسى، وقال: إنما هي فتنة». ويبدو أن ما قاله أبو موسى أثّر في أهل الكوفة إذ لم يواف الخليفة منهم بذي قار بعد أن تعاقبت رسله إليهم إلاّ عددٌ يقع في حدود السبعة آلاف مقاتل[1] وإذا صحّ ما قلناه سابقاً وهو أن عدد مقاتلة الكوفة حينذاك يقدر بثمانين ألفاً نرى ضآلة العدد الذي التحق بالإمام (ع) عند محاربته لأهل البصرة، ولعلّ الخطبة التي سنوردها بعد قليل تعكس وجهة نظر الإمام عليّ (ع) حول سلوك غالبية أهل الكوفة نحوه، رغم أنه اتخذ من بلدهم عاصمةً له، وأنه اعتمد عليهم في محاربة خصومه. قال الإمام مخاطباً أهل الكوفة:

«أيّها الفرقة التي إذا أُمرتُ لم تُطع، وإذا دعوتُ لم تُجب، إن أُمهلتهم خضتم، وان حوربتم خُرتم، وإن اجتمع الناسُ على إمام طعنتم، وإن أُجبتم إلى مشاقةٍ نكصتم، لا أباً لغيركم، ما تنتظرون بنصركم، والجهاد علَى حقكم؟ الموت أو الذلُ لكم، فوالله لئن جاء يومي ـ وليأيتني ليفرقنَّ بيني وبينكم، وأنا لصحبتكم قالٍ، وبكم غير كثير، لله أنتم، أما دينٌ يجمعكم؟ ولا حميّة تشحذكم؟ أوليس عجباً أن معاوية يدعو الجفاة الطغام فيتبعونه على غير معونةٍ ولا عطاءٍ، وأنا أدعوكم ـ وأنتم تريكة الاسلام وبقيّة الناس ـ إلى المعونة وطائفة من العطاء فتفرّقون عنّي، وتختلفون عليَّ. انه لا يخرج إليكم من أمري رضىً فترضونه، ولا سُخط فتجتمعون عليه، وأن أحبَّ ما أنا لاقٍ إليّ الموت، قد دارستُكم الكتاب، وفاتحتكم الحجاج... لو كان الأعمى يلحظ، أو النائم يستيقظ، وأقرب بقومٍ من الجهل بالله قائدهم معاوية، ومؤدِّبُهم ابنُ النابغة»[2].

ويبدو من هذه الخطبة وأمثالها كثير في كلام الإمام وخطبه[3]، إن غالبية أهل

---

(١) مروج الذهب، ج ٢، ص ٢٤٤.

(٢) نهج البلاغة، ج ١ (القاهرة، لا.ت)، ص ٣٣٦.

(٣) أيضاً، ج ١ ص ٦٥، ٦٧، وقد ورد في الخطبة التي قال فيها: «الا وأني قد دعوتكم إلى قتال هؤلاء القوم ليلاً ونهاراً وسراً واعلاناً، وقلت لكم أغزوهم قبل أن يغزوكم، فوالله ما غزي قوم في عقر دارهم إلا =

الكوفة كانوا لإمامهم غير مطيعين، ولا لأمره منفذين، وأن الإمام لم يترك وسيلة، بما في ذلك الاحتجاج بالكتاب والسنّة وتوفير العطاء، دون أن يستعملها لكسب تأييدهم التام ولكنه لم يفلح، وبلغ السأم به من مشاكستهم إيّاه وتقاعسهم عن نصرته أنه فضّل الموت على العمل معهم.

ولو سأل سائلٌ عن الأسباب التي أدّت إلى تقاعس أهل الكوفة عن نصرة الامام عليّ (ع)، وللإجابة على السؤال السابق نقول: يمكن تلخيص تلك الأسباب بما يأتي:

أولاً: إن الغالبية العظمى من أهل الكوفة في ذلك الحين لم تكن تعتقد بإمامة عليّ، ورضخت أكثريتهم لحكمه بصفته خليفة للمسلمين، ويترتب على ذلك أن أهل الكوفة رغم اعتماد الإمام عليّ عليهم في محاربة الثائرين عليه لم يكونوا من الشيعة، روي أن الامام الباقر قدّر عدد الشيعة في العراق خلال خلافة الإمام عليّ بحدود الخمسين رجلاً، قال الباقر (ع): «كان عليُ بن أبي طالب (ع) عندكم بالعراق يقاتل عدوّه ومعه أصحابه، وما كان فيهم خمسون رجلاً يعرفونه حقّ معرفته»[(١)].

ثانياً: كان أسلوب الامام عليّ (ع) في العمل السياسي أقرب إلى المثاليات ومستلزمات التقوى منه إلى اعتماد الاعتبارات العملية، تلك الاعتبارات التي تعدُّ مراعاتها طبقاً لكثير من وجهات النظر من مقومات السياسة الناجحة، سواء كان ذلك في الكوفة أو في غيرها، وسواء كان ذلك في عصر الامام عليّ أو في أي عصرٍ من العصور، ويبدو أن الإمام فضّل مقتضيات التقوى والأخلاق على النجاح بالسياسة، . كما يبدو أنه (ع) حسبما يظهر من خطبته التي سنوردها بعد قليل، كان عارفاً بمقتضيات السياسة ولكنه تجنّبها قاصداً للاعتبارات التي أشرنا إليها في أعلاه، قال الإمام عليّ (ع):

«والله ما معاويةُ بأدهى منّي ولكنه يغدرُ ويفجرُ، ولولا كراهية الغدر لكنت من أدهى الناس، ولكن كلُّ غدرةٍ فجرةٌ، وكلُ فجرةٍ كفرةٌ، ولكل غادر لواء يُعرف به يوم القيامة، والله ما استغفل بالمكيدة ولا استغمز بالشديدة»[(٢)]. وهناك أمثلة على مثاليات

= ذلوا. . . الخ. . . .».

(١) الكشي، محمد بن عمر، الرجال (النجف، لا.ت) ص ١٢.

(٢) نهج البلاغة، ج ١، ص ٤١٥.

الامام عليّ بالسياسة، منها أنه كان يشك بإخلاص الأشعث بن قيس وبأمانته، فكتب له مرّةً يقول: «وان عملك ليس لك بطعمةٍ ولكنه في عنقك أمانةٌ...»[١]. ووصفه مرة أخرى بأنه: «حائك ابن حائك، منافق ابن كافر»[٢]، وبالرغم من ذلك ترك الامام عليّ الأشعث دون عقاب صارم على أمل أن يعود للحق، ولكن الأشعث لم يرتدع، وبقي عنصراً ضارّاً في جيش الامام وكان من بين الذين عملوا على إيقاف القتال في صفين بعد أن كاد النصر يلوح لأهل الكوفة وخليفتهم علي (ع)[٣].

ثالثاً: إن سياسة الإمام عليّ (ع) في شؤون المال بما في ذلك قسمته للمال العام بالسويّة بين المسلمين لم تلق رواجاً، كما يبدو، بين أوساط النبلاء بخاصة وعامة العرب بعامة، روى اليعقوبي: ان الإمام علياً بعد أن انتصر في حرب الجمل: «أعطى الناس بالسويّة، لم يفضِّل أحداً على أحد، وأعطى الموالي كما أعطى الصليبية، وقيل له في ذلك فقال: قرأت ما بين الدفتين فلم أجد لولد اسماعيل على ولد إسحاق فضلٌ...»[٤]. ويبدو مما سبق أن جماعات من جيش عليّ بما فيهم أهل الكوفة احفظها تقسيم عليّ للمال بالسويّة، ونصحت الخليفة بالعدول عن ذلك ولكنه رفض.

وبعد أن آلت الخلافة إلى معاوية أوكل أمر الكوفة إلى عددٍ من الولاة كان من أشهرهم زياد بن أبيه، وكان زياد من الولاة الأكفاء، وسبق أن بيّنا جهوده في إحكام بناء مسجد الكوفة وتبليط أرضه بالحصى، يضاف إلى ذلك أنه قسَّم: «جند الشرطة في الكوفة أربعة أقسام، وفي كل قسمٍ منها تتمثل القبائل المختلفة، من غير أن يكون على رأسهم رئيس القبيلة، بل رئيس تعينّه الحكومة»[٥]، وأرسل زيادٌ زهاء خمسين ألفاً بعيالاتم من سكان البصرة والكوفة إلى خراسان وأسكنهم هناك[٦]. ويرى فلهاوزن أن الهدف من الإجراء السابق تخفيف حدّة التوتر الساسيي في

(١) أيضاً، ج ٢، ص ٦.
(٢) أيضاً، ج ١، ص ٥٦.
(٣) فلهاوزن، الخوارج والشيعة، ترجمة عبد الرحمن بدوي، (القاهرة ١٩٥٨) ص ٣ وما بعدها.
(٤) التاريخ، ج ٢ (النجف، ١٣٥٨) ص ١٦٠.
(٥) فلهاوزن، الدولة العربية وسقوطها، ص ١٢٠.
(٦) البلاذري، فتوح البلدان، ص ٤٠٠.

العراق[١]، وحاول زياد أن يكسر جماح المعارضة في الكوفة، وكانت تلك المعارضة تعمل بالتدريج على تنظيم صفوفها، وتجعل معارضتها تقوم على المبادىء والقيم، وتمثلت المعارضة في تلك الفترة بشيعة عليّ بالكوفة، وبعد مقتل عليّ أحكمت قبضة الأمويين من الناحية الإدارية والمالية على أهل الكوفة، وحينئذٍ أخذت قطاعات كبيرة من أهل الكوفة تشعر بالندم على خذلان عليّ (ع)، وأصبح الامام عليّ في نظرهم أنه الإمام الحق، وانه وآله هم رمز استقلال بلادهم المفقود.

ولجأ زياد خلال نزاعه مع المعارضة إلى إيقاع الفرقة[٢] بين أهل الكوفة، وبذلك تمكّن من كسر شوكة المعارضة، وتوج عمله هذا بإقناع الخليفة معاوية بضرورة القضاء على حجر بن عدي زعيم تلك المعارضة حينذاك، ومع ذلك فإن لمقتل حجر نتائج إيجابية في حركة التشيّع لأنه ساعد على تكتل الشيعة من جهة، وأثار السّخط على الأمويين بين أوساط كبيرة من المسلمين من جهة أخرى.

وتولّى الكوفة بعد زيادٍ خلال خلافة معاوية عددٌ من الولاة كان من بينهم عبد الرحمن بن عبد الله بن عثمان بن ربيعة الثقفي، وهو ابن أم الحكم أخت معاوية، وتولّى عبد الرحمن الكوفة سنة ٥٨ هـ، وفي عهده عاد الخوارج إلى الظهور بزعامة حيان بن ظبيان السلمي الذي وصف الأمويين بأنهم «ظلمة» وطلب من أصحابه جهادهم[٣].

ولم تكن هذه أول حركة للخوارج بالكوفة وسوادها بل انهم خرجوا مرات عديدة، وكان ولاة الأمويين يستعينون أحياناً عليهم بالشيعة[٤] من أهل الكوفة، مستغلين الخلاف العقيدي بين الفريقين، وكان عبد الرحمن هذا سيء السيرة، قال الطبري: «استعمل معاوية ابن أم الحكم على الكوفة فأساء السيرة فطردوه، فلحق بمعاوية فقال له أولّيك خيراً منها مصر»[٥]، وهناك رواية أخرى حول نهاية حكم ابن أم الحكم في الكوفة، قال ابن الخشاب: «لما اشتد بلاء عبد الرحمن بن أم الحكم على أهل الكوفة، قال عبد

---

(١) الدولة العربية، ص ١٢٠.
(٢) الطبري، التاريخ، ج ٤، ص ١٩٤.
(٣) أيضاً، ج ٤، ص ٢٢٩.
(٤) أيضاً، ج ٤، ص ١٤٤، ١٤٨.
(٥) أيضاً، ج ٤، ص ٢٣١.

عن الحسين بن علي: «وأرجو أن يكفيكه الله بمن قتل أباه وخذل أخاه»[1].

ولعل قائل يقول: لماذا كان موقف أهل الكوفة من الحسين ومن زعماء الشيعة من قبله بما فيهم عليّ (ع) لا يتصف بالجدية والإخلاص؟ وللإجابة على هذا السؤال نقول:

أولاً: أسست الكوفة في بيئة ذات مدنية عريقة، فهي وريثة لبابل وللحيرة والمدائن، وسكان بيئات كهذه يوجهون تصرفاتهم حسب مصالحهم الحقيقية، ولا يتركون لعواطفهم في هذا المجال إلاّ دوراً ثانوياً، فلذا كان الكوفيون راغبين في الاستفادة من التشيع أثناء مقاومتهم للحكم الأموي، ولكنهم يقفون عند الحدود التي تصبح عندها مصالحهم الحقيقية مهددة بسبب الإخلاص لذلك المبدأ، يضاف إلى ذلك أن قطاعات كبيرة من سكان الكوفة الجدد، خاصةً من كان منهم من أصلٍ يماني نقلوا صفاتهم المدنية إلى وطنهم الجديد، ويبدو أن غالبية تلك الجماعات كانت تسير بهدي مصالحها الدنيوية ولا تعير مقتضيات، التقوى كبير اهتمامها، لذا حاولوا أن يستفيدوا من النزاع بين البيتين العلوي والأموي لحلّ مشكلاتهم الاقتصادية بخاصة، بما في ذلك توزيع الغنائم ودفع الضرائب، دون أن يكونوا مستعدين للتعرض لأضرار حقيقيةٍ من جراء انضمامهم للعلويين المعارضين للحكم الأموي.

ثانياً: كان العلويون الذين وقفوا ضحايا بريئة نتيجة لاستجابتهم لنداء الكوفيين وتورطهم في الحروب اعتماداً على معونتهم الموهومة، مثاليّن في سياستهم في الغالب ولم يوفقوا، كما يظهر لإدراك نوايا الكوفيين الكامنة وراء الظواهر، وأنساقوا وراء الأوهام، وما لبثوا أن وجدوا أنفسهم حين جدّ الجدّ وحيدين يُصلون بنار المعركة، بينما بقي الكوفيون يتفرجون عليهم.

ثالثاً: كان خصوم العلويين في الفترة التي تناولها بحثنا، أكثر تفهماً لنفوس الكوفيين، وقد أدركوا طرفاً من خفايا نفوسهم، وعرفوا كيف يكبحون جماحهم ويفرقونهم عن ممثلي الحزب العلوي ثم يقضونَ على أولئك الممثلين بسهولةٍ.

وإليك نماذج من أساليب الحُكّام الأمويّن في تعاملهم مع الكوفيّن:

أ ـ اشتدّت شوكة معارضة الكوفيّن للمغيرة بن شعبة والي معاوية على الكوفة، فلم

---

(١) أيضاً، ج ٤، ص ٢٣٩.

الله بن همّام السلولي شعراً وكتبه في رقاعٍ وطرحها في مسجد الكوفة:

ألا أبلــغ معــاويــةَ بــن صخــرٍ فقــد خــربَ الســوادُ فــلا ســوادا
أرى العمــالَ قــد جــاروا علينــا بعــاجــلِ نِفعهــم ظلمــوا العبــادا
فهــل لــك أن تــداركَ مــا لــدينــا وتــدفــعُ عــن رعيتِــك الفســادا

فبلغ الشعر معاوية فعزله»[1].

وكان عبيد الله بن زياد من أشهر ولاة الكوفة الذين وُلّوا الحكم في عهد معاوية وابنه يزيدٌ من بعده، وفي عهده حصلت فاجعة كربلاء المعروفة، ويظهر أن الحالة في الكوفة ما كانت مستقرة عند وفاة معاوية، وأن جهوده وجهود ولاته الرامية لإخضاع الكوفة، ولاستتباب الأمن فيها لم تؤت ثمارها.

فيروى أن معاوية أوصى يزيداً بقول: «وانظر أهل العراق، فأن سألوك أن تعزل عنم كل يوم عاملاً فافعل، فإن عزل عاملٍ أحبُ إليَّ من أن تُشهر عليك مائة ألف سيف»[2]. ولم تكن سياسة الشدّة المقرونة بالحكمة التي اتبعها معاوية بالعراق بقادرةٍ على اجتثاث عوامل التذمر في العراق بعامة وفي الكوفة بخاصة، وكان أهل الكوفة كما يظهر من سيرتهم مع ولاة معاوية ـ كما أشرنا إلى ذلك قبل قليل ـ غير راضين عن الإدارة الأموية التي تحكم بلادهم وتخضعها للشام.

ومردُّ ذلك إلى أن العراق كان مركز المعارضة للحكم الأموي، وأخذت المعارضة في الكوفة بخاصة تتخذ بالتدريج شكل المعارضة الخطرة القائمة على الخلافات العقيدية المتمثلة بنمو التشيّع الذي اكتسب قوةً بفضل استشهاد (عليّ بن أبي طالب) وحجر بن عدي وصحبه.

وبالرغم من ذلك فإن غالبية أهل الكوفة في تلك الفترة من تاريخهم وحتى في فتراتٍ لاحقةٍ لم يكونوا مستعدّين لتقديم التضحيات الجسام في سبيل تلك العقيدة، فكانت قلوبهم مع الحسين إمام الشيعة في عهده وسيوفهم عليه، ويبدو أن بني أمية كانوا يعرفون ذلك عن أهل العراق، فروي أن معاوية قبيل وفاته قال لابنه يزيد بمعرض كلامه

(١) ابن الخشاب البغدادي، رسالة ضمن مقامات الحريري، (القاهرة، ١٣٢٦)، ص ١٢ ـ ١٣.
(٢) الطبري، التاريخ، ج ٤، ص ٢٣٨.

يستكن ويتوجه لهم بالموعظة أو يدعوا الله أن يستبدله بخير منهم ويستبدلهم بشرٍ منه كما فعل عليّ (ع) في حالة مماثلة ـ كما أسلفنا ـ بل أنه حبس أعطيات أهل الكوفة أي رواتبهم السنوية عنهم، روى الطبري: أن المغيرة حين اختلف مع حجر بن عدي وأصحابه حبس أعطيات المعارضين، فقال له حجرٌ: «أيها الانسان مرْ لنا بأرزاقنا واعطياتنا فإنك قد حبستها عنّا وليس ذلك لكَ، ولم يطمع في ذلك من كان قبلك»(١).

ب ـ أصبحت الكوفة مهددة من الخوارج في عهد المغيرة فانتدب لحربهم جماعةً من أهل الكوفة، فقام إليه عدي بن حاتم، وقال: «كلنا لهم عدوٌ، ولرأيهم مسفهٌ، وبطاعتك مستمسكٌ، فايّنا شئت سارَ إليهم».

وقال معقل بن قيس مخاطباً المغيرة: «أنك لا تبعث إليهم أحداً ممن ترى حولك من أشراف المصر إلاّ وجدته سامعاً مطيعاً وأرى أصلحك الله انك لا تبعث إليهم أحداً من الناس أعدى لهم ولا أشدّ عليهم منّي...» وبعد أن استوثق منه المغيرة ووبخه على مدحه لعليّ وانتقاصه لعثمان، وبيّن له أن الجهر بذلك: «لا يحتمله الخليفة لنا ولا يعذرنا فيه» أمر بإخراج الجيش معه «وهم ثلاثة آلاف، نقاوة الشيعة وفرسانهم»(٢).

اخرج المغيرة الشيعة لقتال الخوارج بالشكل الذي وصفنا، ولكن حين بلغت جيوش معاوية الأنبار وهددت الكوفة في حالة مماثلة نجد عليّاً (ع) يعامل أهل الكوفة معاملةً تختلف عمّا فعله المغيرة، قال عليٌ (ع) من خطبة طويلة:

«فإذا أمرتكم بالسير إليهم في أيام الحرّ قلتم هذه حمّارةُ القيظ... وإذا أمرتكم بالسير إليهم في الشتاء قلتم هذه صبّارة القر... ـ وينهي خطبته بقوله ـ: ولكن لا رأي لمن لا يطاع»(٣).

فالكوفيون عصوا عليّاً (ع) من قبل رغم أن بلادهم مهددة بجيوش العدوّ، وأطاع المغيرة الشيعة الذين عصوا إمامهم وذلك لوجود الفرق بين طريقة عليٍّ في الحكم وطريقة المغيرة.

(١) أيضاً، ج ٤، ص ١٨٩.
(٢) أيضاً، ج ٤، ص ١٤٣ ـ ١٤٤.
(٣) نهج البلاغة، ج ١، ص ٦٧ وما بعدها.

ج ـ كان زياد بن أبيه يستخدم الحمراء في شرطته، وهم أقلية ايرانية من سكان الكوفة، قال الطبري: أن أحد أعوان حجر بن عدي اختفى عن زياد، فبعث إليه الشُرط وهم أهل الحمراء يؤمئذٍ فأخذوه(١). وحمراء ديلم أو الحمراء قومٌ من الايرانيين سكنوا الكوفة بعد تمصيرها ـ كما أسلفنا ـ واستعمالهم في سلك الشرطة يجعلهم أشدّ وطأة وأمعن تدقيقاً في تتبع من يريدهم الحاكم، ويدلّ استخدامهم على بُعد نظر زيادٍ، ثم أن زياداً كان يصلّي في مقصورة ـ كما أسلفنا ـ ليحمي نفسه من الطوارىء... بينما نجد علياً يترك نفسه دون حراس فيُقتل بالمسجد كما هو معلوم، ويقول لابنه الحسن قبل أن يموت: «والله الله في الفقراء والمساكين فأشركوهم في معايشكم»(٢). ونتج عن الفرق بين الطريقتين في حِكم أهل الكوفة أن قال بعض المؤرخين: إن خصوم (عليّ) كانوا ناجحين في سياستهم في الكوفة، وأن أساليب (عليّ) وولديه (ع) من بعده لم تُجدِ معهم نفعاً.

وتعاقبت الأحداث في الكوفة بعد مقتل الحسين (ع). فالكوفيون الذين عادوا لتوهم من مجزرة كربلاء مثلوا أمام عبيد الله بن زياد لتهنئته بالنصر، ولكنهم بعد أن خرجوا من مجلسه سمعوا شخصاً يدعى زيد بن أرقم يوبخهم ويقول: «ملك عبدٌ عبداً فاتخذهم تلوا، أنتم يا معشر العرب العبيد بعد اليوم، قتلتم ابن فاطمةٍ، وأمّرتم ابن مرجانة، فهو يقتل خياركم، ويستعبد شراركم، فرضيتم بالذلّ، فبعداً لمن رضي بالذل»(٣).

كما سمعوا زينب بنت عليّ (ع) تندب قتلى كربلاء وتقول: «يا محمّداه صلّى عليك ملائكة السماء، هذا الحسين بالعرا مرملٌ بالدما، مقطع الأعضاء، يا محمّداً وبناتك سبايا، وذريتك مقتلة تسفي عليها الصبا»(٤).

ويبدو أن تلك الأقوال وأمثالها فضلاً عن غيرها من العوامل أخذت تفعل فعلها في الكوفة، لا سيما أن ولاء غالبية أهلها لنبي أمية لم يكن مبعثه الاخلاص بل التملّق

(١) التاريخ، ج ٤، ص ٢٠٩ ـ ١١٠.
(٢) أيضاً، ج ٤، ص ١١٥.
(٣) الطبري، ج ٤، ص ٣٤٩.
(٤) أيضاً، ج ٤، ص ٣٤٨.

لسلطانهم والخوف من سوطِهم. ومما يؤيد ذلك أن المختار لما زار عبد الله بن الزبير في مكة، سأله ابن الزبير عن حال الناس بالكوفة فأجاب المختار: «هم لسلطانهم في العلانية أولياء وفي السر أعداء» فقال له ابن الزبير: «هذه صفة عبيد السوء، إذا رأوا أربابهم خدموهم وأطاعوهم، فإذا غابوا عنهم شتموهم ولعنوهم»[١].

وكان موت يزيد المفاجيء من العوامل التي عجلت في تحول موقف غالبية الكوفيين من التأييد لبني أمية إلى الاهتمام بقضية العلويين، قال الطبري: إن عبيد الله بن زياد بعث بعد موت يزيد رسلاً من البصرة لأهل الكوفة يدعوم لبيعته ريثما يجتمع الناس على رجلٍ، فرفض الكوفيون طلبه وقال قائلهم: «أنحن نبايع لابن مرجانة لا ولا كرامة»[٢].

يضاف إلى ذلك أن طائفة كبيرة منهم انضمت إلى حركة عُرفت بحركة التوّابين، هدفها التكفير عن الذنوب التي لحقت بأصحابها من جراء تقاعسهم عن نصرة الحسين، وذلك بأخذ الثأر من قاتليه، ويقول الطبري في حوادث سنة ٦٥ هـ: «وفي هذه السنة تحركت الشيعة بالكوفة، واتعدوا الاجتماع بالنخيلة... للمسير إلى أهل الشام للطلب بدم الحسين بن علي، وتكاتبوا في ذلك»[٣]، وأوكل التوابون قيادة حركتهم لسليمان بن صُرَد الخزاعي شيخ الشيعة[٤] وكان نصيب التوّابين الفشل في الحرب، ولكن حركتهم أصبحت فيما بعد من العوامل المساعدة على تثبيت بذور التشيّع في الكوفة. يقول فلهاوزن: «والكوفيون الذين جرّوا الحسين إلى الكارثة ثم تركوه وحده يصلاها راح ضميرهم يؤنّبهم على ما اقترفت أيديهم، فشعروا بالحاجة إلى إرضاء الربّ وبالكفارة عن أثمهم بالتضحية بأنفسهم، فسموا أنفسهم (التوّابين) وبدأوا لأول مرة ينظمون أنفسهم»[٥].

وبعد فشل حركة التوابين تسلّم المختار قيادة الشيعة بالكوفة، وعمل المختار باسم محمّد بن الحنفية أحد أبناء عليّ (ع) من غير فاطمة، ووصفه بأنه المهديّ المنتظر،

---

(١) أيضاً، ج ٤، ص ٤٤٤.
(٢) أيضاً، ج ٤، ص ٤٠٤.
(٣) أيضاً، ج ٤، ص ٤٢٧.
(٤) البلاذري، أنساب الإشراف، ج ٥، (القدس، ١٩٣٦) ص ٢٠٥.
(٥) الخوارج والشيعة، ص ١٨٩.

ولكنه لم يكن شديد الاخلاص لقضية العلويين بعامة وابن الحنفية بخاصة.

ويظهر أن المختار أراد بترويجه لفكرة مهدية محمدٍ أن يستفيد من اسمه سياسياً دون أن يشركه بالسلطة الفعلية، وعندما همَّ «ابن الحنفية أن يقدم إلى الكوفة وبلغ ذلك المختار فثقل عليه قدومه، فقال: إن في المهدي علامة، يقدم بلدكم هذا فيضربه رجل في السوق بالسيف لا تضره... فبلغ ذلك ابن الحنفية فأقام»[١].

وقد أملت على المختار عواطفه العلوية، ومقتضيات سياسته الواقعية أن يثأر من قتلة الحسين في الكوفة بما فيهم عمر بن سعد قائد الجيش الأموي الذي صنع فاجعة كربلاء، وقد وضّح المختار منهجه بالعمل في رسالةٍ بعث بها إلى رفاعة بن شداد حين رجوعه من معركة عين الوردة التي هزم فيها التوابون، وجاء في الرسالة المذكورة. «أدعوكم إلى كتاب الله وسنّة نبيّه (ص)، وإلى الطلب بدماء أهل البيت، والدفع عن الضعفاء»[٢]، وربما قصد المختار بعبارة الضعفاء الذين يريد الدفاع عنهم، الموالي أي المسلمين من غير العرب، وفعلاً استهوى المختار الموالي لأغراض سياسية فأدخلهم في جيشه بعد أن استتب له الأمر، وساواهم بالعطاء مع العرب مما أثار حفيظة العرب من أهل الكوفة، فقالوا: «عمدت إلى موالينا وهم مما أفاء الله علينا وهذه البلاد جميعاً فاعتقنا رقابهم نأمل الأجر... فلم ترض لهم بذلك حتى جعلتهم شركاءنا في فيئنا...»[٣]، وكان الموالي الذين أدخلهم المختار في جيشه من الغلاة الكيسانية القائلين بإمامة ابن الحنفية، ويعدُّ المختار في تبنّيه فكرة عدم التمييز العنصري بين المسلمين من عرب وغيرهم من دعاة الاصلاح في الإسلام. يقول فلهاوزن: «وكان تحوّل الموالي إلى شيعة غلاة حادثاً ذا أهمية في التاريخ العالمي... وشاء (المختار) القضاء على الفوارق بين المسلمين من الطبقة الأولى، والمسلمين من الطبقة الثانية، فمن يأخذ عليه ذلك، لا يكون له الحقّ في أن يأخذ على الحجّاج أنه عمل العكس فأكّد هذه الفوارق بكل قوة وأعادها إلى ما كانت عليه، والحقّ أن المختار خليق بالمدح لكونه كان أسبق من غيره في إدراك أن الأحوال القائمة

(١) ابن سعد، الطبقات، ج ٥، ص ٧٤.
(٢) الطبري، ج ٤، ص ٤٧١.
(٣) الطبري: ٤:٥١٨.

آنذاك لا يمكن أن تبقى كما هي، إذ لم يكن الإسلام بل العنصر العربي هو الذي يعطي الحقوق المدنية الكاملة في الحكومة الدينية، ولو كان المختار قد حقق هدفه الأصلي لكان من الممكن أن يكون منقذ الدولة العربية»(١).

وبعد أن فشلت حركة المختار وحكم الزبيريون الكوفة لفترة قصيرة آل أمر الكوفة إلى الحجّاج والي الأمويين في العراق، وقد منحه الخليفة عبد الملك بن مروان سلطات واسعة، ذكر اليعقوبي: أن عبد الملك كتب للحجّاج كتاباً بخطه: «أما بعد يا حجّاج فقد ولّيتك العراقين صدقة، فإذا قدمت الكوفة فطأها وطأةً يتضاءل منها أهل البصرة»(٢).

وعندما قدم الحجّاج للكوفة ذكر الخطوط العامة لسياسته في خطبة ألقاها من على منبرها، ويبدو أنه كان ينوي تفضيل سياسة الشدّة على اللين، فقال مخاطباً أهل الكوفة: «فأنكم طالما أوضعتم الفتن، وسننتم سننَ الغي، أما والله لألحونكم لحوَ العودِ، ولاعصبنّكم عصبَ السلمةِ... والله لتستقيمن في سبيل الحق، أو لأدعن لكل رجلٍ منكم شغلاً في جسده...»(٣)، وفي مناسبة أخرى وصف أهل العراق بالنفاق والشقاق ومساوىء الأخلاق، وقال: «فأقسم بالله، لأوشك أن أوقع بكم وقعةً تكون نكالاً لما قبلها وأدباً لما بعدها»(٤).

وقد حاول الحجّاج أن يطبق سياسه التي أعلنها بخطبه المذكورة خلال حكمه للكوفة، وكان يستفز أهل الكوفة في غالب الأحيان ويثير حفيظتهم بإثارة قضايا وثيقة الصلة بحياتهم، وفضلاً عن ذلك كان يتهمهم بالجبن، وعدم الإخلاص في حرب الخوارج الذين أربكوا سياسته في ذلك الحين، روى الطبري: أن الحجّاج كتب إلى عبد الملك بن مروان: «أما بعد فإني أخبر أمير المؤمنين... ان شبيباً قد شارف المدائن وإنما يريد الكوفة، وقد عجز أهل الكوفة عن قتاله في مواطن كثيرة، في كلِّها يقتل أمراءهم ويفلُّ جنودهم، فإن رأى أمير المؤمنين أن يبعث إليّ أهلَ الشام فيقاتلوا عدوهم

(١) الخوارج والشيعة، ص ٢٥٢ ـ ٢٥٣.
(٢) التاريخ، ج ٣، ص ١٨.
(٣) الطبري، المصدر السابق، ج ٥، ص ٤١.
(٤) أيضاً، ج ٥، ص ٤٣.

ويأكلوا بلادهم فليفعل. . .»[١].

ويبدو أن الحكومة المركزية كانت تشارك الحجّاج رأيه في أهل الكوفة، وذات مرة قتل أحد قواد الحجّاج في حربه مع الخوارج، فأخبر الخليفة عبد الملك بذلك، فما كان من الخليفة إلاّ أن ذمَّ أهل الكوفة علناً بمنى حيث كان يؤدّي مناسك الحج هناك[٢].

إن ما قرناه يمثل رأي الأمير وخليفته في أهل الكوفة خلال حربهم مع الخوارج، مع أن الكوفيين في معركة واحدة مع شبيب الخارجي خسروا مائة وعشرين شخصاً من كنده، وألفاً من سائر الناس، هذا فضلاً عن مقتل عظيم العرفاء[٣]، ومن الجدير بالذكر أن الكوفيين لم يكونوا مسؤولين كلية عن خسارة تلك المعركة، بل أن الحجّاج كان يتحمل جزءاً كبيراً من المسؤولية عن الفشل فيها، وذلك أن الحجّاج كان يشك في إخلاص عبد الرحمن بن محمد المعروف بابن الأشعث، ويتهمه في التباطؤ في حرب الخوارج، فعزله عن قيادة الجيش الذي خسر المعركة السابقة، ثم أوكل قيادة ذلك الجيش إلى قائد جديد ذي خبرة ناقصة في الحرب، وذي غرور كبير مما أدى إلى خسران المعركة[٤].

ويبدو أن الحجّاج كان أنانياً يعمل على إبراز شخصه في الأحداث العامة دون الاهتمام التام بمصلحة من يحكمهم، أو من يحكم باسمهم، والأدلة على ذلك كثيرة:

أولاً: التخلص من محمد بن موسى بن طلحة رغم أن في هلاكه ضررٌ للحكومة الأموية التي كان الحجّاج موظفاً فيها، وكان الحجّاج غير مرتاح للصلة الوثيقة الموجودة بين محمدٍ والخليفة عبد الملك، والتي كان من نتيجتها أن يوكل الخليفة لمحمدٍ هذا بمهمّة عسكرية في سجستان دون استشارة الحجّاج. ولما نزل محمد الكوفة في طريقه إلى سجستان أشار عليه الحجّاج أن يحارب الخوارج بدلاً من الذهاب إلى مهمّته الأصلية، مع العلم أن قلّة خبرة محمد بحرب الخوارج، وعدم استعداده التام للقائهم يوحيان بأن فشله في حربهم يكاد أن يكون محققاً.

(١) الطبري، ج ٥، ص ٨٥.
(٢) أيضاً، ج ٥، ص ٤٨.
(٣) أيضاً، ج ٥، ص ٨٢.
(٤) الطبري، ج ٥، ٨٠ وما بعدها.

قال الطبري: ولّى عبد الملك محمد بن موسى، سجستان: «فمر بالكوفة وبها الحجّاج بن يوسف، فقيل للحجّاج إن صار هذا إلى سجسان مع نجدته وصهره لعبد الملك فلجأ إليه أحدٌ ممن تطلب منعك منه، قال: فما الحيلة؟ قيل تأتي وتسلّم عليه وتذكر نجدته وبأسه، وأن شبيباً في طريقه، وأنه قد أعياك، وأنك ترجو أن يريح الله منه على يده فيكون له ذكرُ ذلك وشهرته، ففعل فعدل إليه محمدٌ... فواقعة شبيبٌ... فبارزه شبيب فقتله»[١].

ثانياً: كان اعتداد الحجّاج برأيه وتدخله في قضايا تدخل في صميم اختصاص ذوي العلاقة من الأسباب التي ألحقت بالدولة أضراراً كبيرة، وسبق أن بيّنا أن تدخلّه في شؤون أحد قواده الذي أرسله لحرب الخوارج كان من بين الأسباب التي أدّت إلى هزيمة جيش الحكومة، ثم أن تدخله في شؤون قائده ابن الأشعث حمل الأخير على العصيان والقيام بثورة في الكوفة كادت تطيح بحكم الأمويين في العراق، وكان الحجّاج قد أرسل ابن الأشعث لفتح بلاد رتبيل رغم مما بين الاثنين من فقدان الثقة وخلافٍ في الرأي[٢].

وقد تصرف ابن الأشعث في ساحة المعركة بما يمليه عليه واجبه، ورأى أن يتمهل في حربه مع العدو، وكان: «كلما حوى بلداً بعث عليه عاملاً، وبعث معه أعواناً، ووضع البرد فيما كان بين كل بلد وبلد، وجعل الأرصاد على العقاب...»[٣]، وعندما اطلع ابن الأشعث الحجاج على خططه رفضها، وعزا تمهله في فتح البلاد إلى عدم مقدرته، ثم أرسل الحجّاج كتباً متلاحقة يدعوه فيها إلى تنفيذ اقتراحاته، وإذا لم يفعل عليه أن يعتزل العمل، وعندما وصلت كتب الأمير إلى ابن الأشعث أطلع الجيش على جلية الأمر، فما كان منهم إلاّ أن رفضوا خطط الحجّاج واتهموه بأنه يريد هلاكهم. قال الطبري: أن أحد أفراد جيش ابن الاشعث قال عندما سمع بما عزم عليه الأمير: «أن الحجّاج والله ما يبالي أن يخاطر بكم فيقحمكم بلاداً كثيرة اللّهوب واللّصوب، فإن ظفرتم فغنمتنم أكل البلاد وحاز المال... وإن ظفر عدوكم كنتم أنتم الأعداء البغضاء»[٤].

(١) أيضاً، ج ٥، ص ٧٧.
(٢) أيضاً، ج ٥، ص ١٤٠.
(٣) أيضاً، ج ٥، ص ١٤١.
(٤) أيضا، ج ٥، ص ١٤٧.

وكانت النتيجة أن خلع ابن الأشعث وجنده طاعة الحكومة، وحصلت بين الفريقين حرب كلّفت الدولة وأهل الكوفة أموالاً طائلة ونفوساً كثيرة.

ثالثاً: كان الحجّاج يجعل مقتضيات سياسته المحلية وخلافاته الشخصية تطفو على المصالح الأساسية للدولة، روى البلاذري: أن بني أمية استصلحوا أجزاء من البطائح في العهود السابقة لحكم الحجّاج في الكوفة، وفي عهد معاوية فقط أصلح ما غلته خمسة ملايين درهم: «فلما كان زمن الحجّاج غرق ذلك لأن بثوقاً انفجرت فلم يعان الحجّاج سدّها مضارة للدهاقين، لأنه كان اتهمهم بممالأة ابن الأشعث حين خرج عليه»(١).

رابعاً: كان الحجّاج ـ إن صحت الروايات ـ يثير قضايا خطيرة وثيقة الصلة بالدين، وإن الفائدة الآنية ـ إن كانت لها فائدة ـ لا تتناسب وما تثيره تلك القضايا من مشكلات خطيرة للأمير وللخليفة معاً، روى الطبري: أن الحجّاج بعد أن انتصر على ابن الأشعث: «كان لا يبايعه أحد إلاّ قال له: أتشهد أنك قد كفرت؟ فإذا قال: نعم، بايعه وإلاّ قتله...»(٢).

روى المسعودي خبراً رفعه إلى الربيع بن خالد قال: «سمعت الحجّاج يخطب على المنبر وهو يقول: أخليفة أحدكم في أهله أكرم عليه أم رسوله في حاجته؟ فقلت: الله عليّ أن لا أصلّي خلفك أبداً، ولئن رأيت قوماً يجاهدونك لاقاتلنك معهم...»(٣).

وتولى الكوفة بعد الحجّاج عددٌ من الولاة، منهم: خالد بن عبد الله القسري، وكان خالدٌ ذا قدرة كبيرة في الشؤون الاقتصادية، وقد استُصلحت على يده وبإشراف الخليفة هشام مناطق كبيرة من البطيحة، وكان حسان النبطي من الخبراء الاقتصاديين الذين استعان بهم خالد في هذا الخصوص(٤) وتمكّن خالد نتيجة لذلك من اقتناء عدد كبير من المقاطعات الخصبة التي كانت تدرّ عليه غلات كبيرة، وذكر الطبري: أن هشام بن عبد الملك سأل حسان النبطي عن غلة خالد فقال: ثلاثة عشر ألفَ ألفٍ(٥).

---

(١) فتوح البلدان، ص ٢٩١.
(٢) التاريخ، ج ٥، ص ١٦٩.
(٣) المسعودي، المصدر السابق، ج ٣، ص ٨٧.
(٤) البلاذري، فتوح البلدان، ص ٢٩١.
(٥) التاريخ، ج ٥، ص ٤٦٨.

ويذكر الطبري أيضاً أسماء ضياع خالد، ويبيّن أن هشاماً عزله لأنه: «اعتقد بالعراق أموالاً، وحفر أنهاراً حتى بلغت غلّته عشرين ألفَ ألفٍ، منها نهر خالد، وكان يغلّ خمسة آلافِ ألفٍ. . . .»[١]. وكان خالد يؤخر بيع غلّته فيرتفع سعر القمح، وسبق أن بيّنا أن خالد جدد بناء سوق الكوفة وعقد سقوفه بالآجر والجص، كما أنه ضرب نقوداً فضية ذات عيار جيد.

وبعد أن عُزل خالد تولّى يوسف بن عمر ولاية الكوفة، وفي عهده حصلت ثورة زيد بن عليّ في الكوفة، وكان من بين الشعارات التي أطلقها زيد للدفاع عن المستضعفين، وإعطاء المحرومين، وقسّم هذا الفيء بين أهل السواد، وإعادة الحق إلى أهل البيت.

وقد فشلت ثورة زيد كما هو معروف، ومع ذلك كان لمقتله أثر مهم في تكتل الشيعة وازدياد غضبهم على حكم الأمويين، قال اليعقوبي: «ولمّا قُتل زيد وكان من أمره ما كان، تحركت الشيعة بخراسان، وظهر أمرهم، وكثر من يأتيهم ويميل معهم، وجعلوا يذكرون للناس فعل بني أمية وما نالوا من آل رسول الله (ص) حتى لم يبق بلدٌ إلاّ فشا فيه هذا الخبر وظهرت الدعاة. . .»[٢]، وكان لموت زيد نتيجة أخرى، وهي أن موته أزال من طريق الدعوة العباسية منافساً قوياً[٣]، يضاف إلى ذلك أن حركته كانت احتجاجاً على فقدان العدل الاجتماعي.

الحركة الفكرية في الكوفة:

كانت منطقة الكوفة ملتقى لثقافاتٍ متعددةٍ بما فيها الثقافة الإسلامية العربية الوافدة إليها بعد تمصير الكوفة، وقد نزل الكوفة بعد تمصيرها عددٌ من الصحابة الذين كان كثير منهم ذا معرفة بكتاب الله وسنّة رسوله، قال ابن سعد: «هبط الكوفة ثلمثائة من أصحاب الشجرة وسبعون من أهل بدر.. وكان عمار بن ياسر، وعبد الله بن مسعود من بين هؤلاء، وكان ابن مسعود من مشاهير علماء عصره، وقد وصفه الخليفة عمر (ر)

(١) أيضاً، ج ٥، ص ٤٧٥.
(٢) التاريخ، ج ٣، ص ٦٦.
(٣) أمير علي، مختصر تاريخ العرب، (بيروت، ١٩٦١)، ص ١٥٥.

بسعة العلم، وقال: «آثرت أهل الكوفة بعبد الله على نفسي».

وكتب إلى أهل الكوفة يقول: «بعثت إليكم بعبد الله بن مسعود معلماً ووزيراً... فخذوا عنه»[١].

وقد اشتغل ابن مسعود بإقراء القرآن وتفسيره ورواية الحديث، روى الطبري: أن شخصاً اسمه مسروق، قال: «كان عبد الله (بن مسعود) يقرأ علينا السورة، ثم يحدّثنا فيها ويفسرها عامة النهار»[٢]، ويظهر أن جهود ابن مسعود في التعليم والرواية أثمرت بصورة جيدة، وذات مرة قال ابراهيم التيمي: «كان فينا ستون شيخاً من أصحاب عبد الله»[٣]. كما إن عبد الله بن مسعود أصبح صاحب طريقة خاصة به في قراءة القرآن، ثم كان لوجوده في الكوفة أثرٌ في شيوع طريقته تلك بالعراق، فكان العراقيون حسب رواية الطبري يقرأون بقراءة ابن مسعود، بينما أهل الشام يقرأون بقراءة أبي بن كعب»[٤]. ويظهر أن آراء ابن مسعود في التفسير والإقراء كانت متقاربة مع آراء عليّ بن أبي طالب، إذ: «كان أصدق الناس عند الناس على عليّ أصحاب عبد الله»[٥].

وبعد أن جعل عليٌ (ع) الكوفة قاعدة خلافته عمل هو وعددٌ من أصحابه على نشر الثقافة الإسلامية فيها، وكان عليٌ (ع) على أغلب الروايات أكثر الصحابة علماً وأغزرهم معرفةً بالقرآن والسنّة.

وسُمع عليٌ مرةً يقول: «لو سألتموني عن آيةٍ آيةٍ في ليلٍ نزلت أو في نهارٍ أُنزلت، مكيها ومدنيها، وسفريها وحضريها، ناسخها ومنسوخها، ومحكمها ومتشابهها، وتأويلها وتنزيلها لأخبرتكم...»[٦].

ووصف الخليل بن أحمد الفراهيدي علياً بأنه: أعلم الصحابة[٧]، ويقول ابن شهراشوب: أن القراء السبعة إلى قراءة عليٍ يرجعون، وأن حمزة والكسائي يعوِّلان على قراءة عليٍ وابن مسعود، وليس مصحفهما مصحف ابن مسعود، فهما إنما يرجعان إلى

(١) الطبقات، ج ٦، ص ٤، ٧.
(٢) التفسير، ج ١ (القاهرة، ١٣٧٤)، ص ٨١.
(٣) ابن سعد، المصدر السابق، ج ٦، ص ٥.
(٤) التفسير، ج ١، ص ٦٠.
(٥) ابن سعد، الطبقات، ج ٥، ص ٥.
(٦) ابن شهراشوب، مناقب آل أبي طالب، ج ١ (النجف، ١٩٥٦) ص ٣١٨.
(٧) أيضاً، ج ٣، ص ١٥.

عليّ ويوافقان ابن مسعود فيما يجري من الأعراب، وقد قال: «ابن مسعود: ما رأيت أحداً أقرأ من عليّ بن أبي طالب للقرآن». وأما عاصم فقرأ على أبي عبد الرحمن السلمي. وقال أبو عبد الرحمن السلمي: «قرأت القرآن كله على عليّ بن أبي طالب، فقالوا أفصح القراءات قراءة عاصم؛ لأنه أتى بالأصل وذلك أنه يظهر ما أدغمه غيره ويحقق من الهمز ما ليّنه غيره، ويفتح من الألفات ما أماله غيره»(١).

ونال عليّ (ع) فضلاً عن ذلك شهرة واسعة في الفقه، وقد أورد المفيد(٢) وابن شهراشوب(٣) طائفة من قضايا قضاياه وفتاواه الفقهية، وتأثر جماعة من فقهاء الأجيال اللاحقة في الكوفة بآراء عليّ الفقهية.

قال ابن شهراشوب: «أما أهل الكوفة وفقهاؤهم سفيان الثوري، والحسين بن صالح بن حيّ، وشريك بن عبد الله، وابن أبي ليلى، وهؤلاء يفرّعون المسائل ويقولون هذا قياس قول عليّ، ويترجمون الأبواب بذلك».

وابن سيرين الفقيه البصري، يفصح بأنه أخذ عن الكوفيين، وقال: «محمد بن الحسن الفقيه: لولا عليّ بن أبي طالب ما علمنا حكم أهل البغي، ولمحمدٍ بن الحسن كتابٌ يشتمل على ثلثمائة مسألة في قتال أهل البغي بناه على فعله»(٤).

وإذا علمنا أن محمد بن الحسن هذا المعروف بالشيباني، كان تلميذ أبي حنيفة، والشارح الرئيسي لآرائه الفقهية، نقدّر مدى تأثير فقه عليّ (ع) في مدرسة الكوفة الفقهية المستندة على الرأي والقياس، والتي أسسها في الكوفة أبو حنيفة، الفقيه الكوفي المعروف، وقد أصبحت آراء أصحاب تلك المدرسة بمثابة الفقه الرسمي للدولة الإسلامية خلال العهد العباسي.

وذكر اليعقوبي جماعة من تلامذة الإمام عليّ (ع) الذين كانوا يحملون العلم عنه، وكان من بينهم الحارث الأعور، وأبو الطفيل عامر بن واثلة، وحبّة العرني، ورشيد الهجري، وجويرية بن مسهر، والأصبغ بن نباته، وميثم التمار، والحسن بن علي(٥). وكان أبو رافع من تلامذة علي أيضاً، وألف كتاب السنن والأحكام

(١) أيضاً، ج ١، ص ٣٢١.
(٢) الارشاد (طهران، ١٣٧٧) ص ٩٢ وما بعدها.
(٣) المناقب، ج ٢، ص ١٧٥ وما بعدها. وأفرد ابن شهراشوب باباً خصة لقضاياه بالكوفة أثناء خلافته.
(٤) ابن شهراشوب، المصدر السابق، ج ١، ص ٣٢٢.
(٥) التاريخ، ج ٢، ص ١٩٠.

والقضايا[١].

وتبنّى فقه عليّ أحفاده وشيعته من بعده، ومن أشهر الفقهاء، من أحفاده الأمامين محمد الباقر، وجعفر الصادق (ع) اللذين كانا رغم وجودهما في الحجاز على صلة وثيقة بشيعتهما بالكوفة، وكان الإمامان المذكوران من أشهرِ واضعي أسس الفقه الإسلامي بعامة والجعفري بخاصة، وقد وصفهما الجاحظ بأنهما علّما الناس الفقه[٢]، أما دور الإمام الصادق في نقل العلوم الإسلامية للكوفيين فيقول عنه الوشاء: «أدركت في هذا المسجد[٣] تسع مائة شيخ، كلٌ يقول حدثني جعفر بن محمد»[٤].

ونختم كلامنا عن دور الكوفة في وضع أسس الدراسات الفقهية عند المسلمين برواية ياقوت، عن سفيان الثوري، الذي قال: «خذوا المناسك عن أهل مكة، وخذوا القراءة عن أهل المدينة، وخذوا الحلال والحرام عن أهل الكوفة»[٥].

أما النثر البليغ، فكان نصيب الكوفة منه في الفترة التي تناولناها في البحث غير قليل، وقد قضى عليٌ سيد خطباء العرب شطراً من حياته كما ألقى معظم خطبه في الكوفة.

قال ماسنيون: «وأما في النثر ففي الكوفة تكوّنت تلك المجموعة المعتبرة النفيسة (نهج البلاغة) الحاوية على الخطب والمواعظ التي ألقاها عليٌ هناك»[٦].

وكانت خطب طائفة من زعماء الخوارج، وخطب زياد بن أبيه، والحجّاج، وزيد بن عليّ تصلح بمثابة نماذج جيدة للنثر في ذلك العصر.

أما الشعر العربي وما له صلةٍ به من العلوم كالعروض، فلم يكن نصيب الكوفة منه حينذاك قليل الأهمية، وقد وردت إشارة يستفاد منها أن أحد المشتغلين بالعروض قبل أن يضع الخليل قواعده ربما كان كوفياً.

قال ابن شهراشوب: أن الخليل بن أحمد: «أخذ رسم العروض عن رجلٍ من أصحاب محمد الباقر، أو عليّ بن الحسين، فوضع لذلك أصولاً»[٧]، ولما كان أصحاب

(١) الكشي، محمد بن عمر، الرجال (النجف، ١٣٨٣) ص ٧٦.
(٢) الرسائل، باعتناء السندوبي (القاهرة، ١٩٣٣)، ص ١٠٨.
(٣) يعني مسجد الكوفة.
(٤) النجاشي، الرجال (طهران، لا.ت) ص ٣١.
(٥) معجم البلدان، ج ٧، ص ٢٩٩.
(٦) خطط الكوفة، ص ١٣.
(٧) المناقب، ج ١، ص ٣٢٦.

الامامين المذكورين كانوا حينذاك من أهل الكوفة في الغالب الأعم، ربما أن صاحب الإمام الذي استفاد منه الخليل كان كوفياً.

ومن شعراء الكوفة في الفترة موضوع البحث حنين الحيري: «وكان شاعراً مغنياً فحلاً من فحول المغنين». وقد عاصر هشام بن عبد الملك ونال جائزته(١)، ومن شعرائها الحكم بن عبدل «ومنزله ومنشأه الكوفة» وهو من شعراء الدولة الأموية(٢)، وكان الكميت بن زيد الأسدي العالم بلغات العرب وصاحب الهاشميات من أشهر شعراء الكوفة في هذه الفترة.

وذات مرة دخل على الباقر فقال له الامام: «والله يا كميت لو أن عندنا مالاً لاعطيناك منه، ولكن لك ما قال رسول الله لحسان: لا يزال معك روح القدس ما ذبيت عنّا»(٣).

ويقول الدكتور مهدي المخزومي: «ولعلّ السبب في عناية الكوفة بالأشعار، ورواية الأدب يرجع إلى أنها لا تزال تحتفظ بعادات العرب، وتقاليدها الأولى، وتغنيها بالبطولة، وتفاخرها بالأبطال، وذلك لأنها منازل العربية الارستقراطية، وموطن امراء القبائل»(٤).

وكانت الكوفة فضلاً عن ذلك، منشأ الخط العربي الكوفي وموطن تطوره(٥). أما النحو فيبدو أن الكوفة في الفترة التي تناولها بحثنا، لم تسهم فيه إسهاماً مهماً.

قال المخزومي: «فالنحو إذن لم ينشأ في الكوفة، وإنما وفد عليها من البصرة، ونشره فيها بصريون جاءوا إلى الكوفة واستوطنوها، وكوفيون رجعوا من البصرة بعد ما تلمذوا لشيوخها، لينشروا بين الدارسين ما تعلّموه هناك» ثم يقول: «ولا نكاد نعرف في الكوفة نحوياً ـ بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة ـ قبل الكسائي..»(٦)، ولما كان عصر الكسائي لا يتناوله بحثنا لم نر ضرورة للبحث عن النحو في الكوفة.

ونختم حديثنا عن الكوفة بالآراء والملاحظات التالية:

أولاً ـ كانت الكوفة تميل في عقيدتها السياسية للالتزام بالحق الشرعي، أيّ أنها تشترط توفر الشرعية في حكّامها. ونتيجة لذلك نجد أن فكرة النصّ والتعييّن في الإمامة

(١) الأصفهاني، أبو الفرج، الأغاني، ج ٢ (بيروت، ١٩٥٦)، ص ٢٣٥ ـ ٢٣٦.
(٢) أيضاً، ج ٢، ص ٢٨٣.
(٣) الكشي، الرجال، ص ١٨١.
(٤) مدرسة الكوفة، بغداد، ١٩٥٥، ص ٥٧.
(٥) ماسنيون، المصدر السابق، ص ١٣.
(٦) مدرسة الكوفة، ص ٥٧ ـ ٥٨.

الشيعية تجسد قبولاً كبيراً في الكوفة، وكان للامامين الباقر والصادق وهما من أئمة الشيعة أسلاف الامامية، اليد الطولى في تثبيت فكرة الإمام المنصوص عليه ونشرها بين أسلاف الامامية بعامة، ومن بينهم أهل الكوفة بخاصة.

وكان لنجاح الامامين المذكورين في تثبيت فكرة النصّ على الامام أثر كبير في نشر عقيدة الشيعة بين معتنقيها من أسلاف الإمامية؛ لأن القول بالنصّ بنوعية الجلي والخفي، أسَّ التشييّع الامامي وجوهره، وعرف الكتّاب الشيعة أسلاف الامامية بأنهم هم الملتزمون بالوصية والسائرون على المنهاج الأول، ويقصدون بذلك أن أولئك الشيعة يلتزمون بنصّ النبي (ص) على خلافة عليّ (ع) وإمامته ونصّ عليّ على من بعده، وهكذا ينصّ المتقدم منهم على من بعده حتى تمت سلسلة الأئمة الاثني عشر المعصومين من ولد عليّ من فاطمة، والتي تنتهي بالامام الغائب (ع).

ويعزى ميل الكوفة إلى الشرعية في السياسة إلى انتشار العقيدة التي اعتنقها الشيعة أسلاف الامامية فيها بصورة مبكّرة أولاً، وإلى ما ورثته من تقليد الساسانيّين في الحكم ثانياً، وإلى أن معظم سكانها العرب كانوا من اليمانيين الذين ألفوا ذلك النوع من الحكم في وطنهم الأصلي ثالثاً.

ثانياً ـ اتخذت الكوفة فكرة «الاجتهاد» واستنباط الأحكام الفقهية من أدلّتها الشرعية أساساً لبناء تراثها الفكري في الحقوق، وتجلى الاتجاه المذكور ليس عند الشيعة أسلاف الامامية وحسب، بل ظهر عند غيرهم من المسلمين الكوفيين أمثال أبي حنيفة (ر).

ثالثاً ـ الجانب الاجتماعي في حركات الغلاة الكوفيين: كانت الكوفة المركز الرئيس لغلاة الشيعة، إن ظهور الغلو في الكوفة دليلاً على التقدم الفكري العميق والوعي الاجتماع عند أهل الكوفة، لأن في الغلو، رغم انحراف القائلين به عن الاسلام، جانباً اجتماعياً ايجابياً؛ وذلك أن القائلين به كانوا بالنسبة لمعاصريهم أكثر شعوراً بظلم الانسان لأخيه الإنسان.

ويبدو أن أكثرية الغلاة، اتخذت من الغلو وسيلة للثورة الاجتماعية على الطبقية والعشائرية اللتين تبناهما حكّام المسلمين حينذاك. ولعلّ في حركة المختار التي انضم إليها الغلاة، الذين كانت غالبيتهم من المستضعفين في الأرض، دليلاً على وجود الجانب الاجتماعي في حركات الغلو... ثم إن الغلاة كانوا بمثابة العمود الفقري للدعوة العباسية لأن قادتها قالوا بالدعوة إلى الرضا من آل محمد ودعوا إلى تطبيق العدل الاجتماعي بين المسلمين كافةً.

* * * * *